العصر العباسي الأول

(١٣٢ هـ / ٣٣٤ هـ)

العصر العباسي

وهو العصر الذي بدأ في التاريخ السياسي سنة اثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة النبويّة الكريمة ، والتي توافق سنة تسع وأربعين وسبعمائة للميلاد "٧٤٩"م وذلك بسقوط الدولة الأمويّة في الشّام ، وقيام الدّولة العباسيّة في الكوفة – يعني العراق وينتهي العصر العباسي في التاريخ السياسي بسقوط "بغداد" على يد "هولاكو" قائد "التتار" وكان ذلك في سنة ست وخمسين وستمائة "٦٥٦" للهجرة والتي توافق سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف للميلاد "١٢٥٨".

وهذا التحديد عرفي قليل الصّلة بالحقيقة التاريخيّة ، أن هذا العصر قد بطل أن يكون عباسياً منذ أيّام الخليفة "المتوكل" الذي جاء إلى عرش "بغداد" في آخر سنة اثنتين وثلاثين ومائتين للهجرة "٢٣٢"هـ ، والذي يوافق سنة سبع وأربعين وثمانمائة للميلاد "٨٤٧"م، والقوّاد والأتراك يملكون الدولة من جميع جوانبها ، ثم لم يكن للخليفة المنصوب على عرش "بغداد" بعد الخليفة "المتوكّل" من الأمر شئ ، وكثرت الدّول والدّويلات في العصر الذي سمّيه "عباسياً".

كان بعضها دولاً غير عربيّة ، ولا "عباسيّة" تنبع في أطراف الخلافة ثم تستقل بما تحت يدها ، وربما مدّ بعضها نفوذه إلى "بغداد" ذاتها

بيْد أن حظّ "الأدب" كان غير حظّ السّياسة ، حيث إنّ الخصائص "العباسيّة" في الأدب ظلّت سائدة في النّتاج الوجداني من الشّعر والنّثر إلى سقوط "بغداد" في يد "التّتار" بقيادة "هولاكو" ، ثم إلى الفتح العثماني للبلاد العربيّة سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة للهجرة "٩٢٣"، والتي توافق سنة سبع عشرة وخمسمائة وألف للميلاد "١٥١٧"م ، ثم إلى مطلع القرن الثالث عشر الهجري والذي يوافق القرن التاسع عشر الميلادي .

وهناك كثرة كاثرة من الناثرين والناظمين ينهجون النّهج العباسي في الأدب ، أصالة وتقليداً ، والأصيلون من هؤلاء الأدباء الذين يُخلّدون في حياتهم الأدبية.

ويقول الدكتور "عمر فروخ" : "أما في هذا الكتاب فسنجعل "العصر العباسي" يتّصل إلى السنة التي فتح فيها السلطان "سليم الأول" العثماني "مصر" سنة "٩٢٣"هـ / ١٥١٧م ، وقضى على المنصب الرمزي الذي كان العباسيون قد احتفظوا به في "مصر" بعد سقوط دولتهم في "العراق" ، هذه الحقبة الطويلة من سنة "١٣٢"هـ إلى سنة "٩٢٣"هـ تنقسم من الناحية السياسية والأدبية أيضاً فترات متفاوتة في الطول وفي الأهمية فإذا نحن اعتبرنا تلك الفترات وما كان فيها من الدول التي اتسع نفوذها في أقسام متباينة من بلاد الخلافة الإسلامية وجدناها التالية :

١ – الفترة العباسيّة الأصيلة (نفوذ فارسي ثم تركي) ١٣٢ – ٢٣٤هـ .

٢ – عصر الدويلات ودولة بني بويه (فارسيّة شيعيّة) ٢٣٢ – ٤٤٠هـ .

٣ – دولة السلاجقة (تركيّة سُنيّة) : ٤٢٩ – ٥٧٩ هـ.

٤ – الأتابكة آل زنكي (من السلاجقة) : ٥١٦ – ٦٣٩ هـ .

٥ – الدّولة الأيوبية : ٥٥٥ – ٧٣٢ هـ .

٦ – دولة المماليك (المماليك البحريّة) : ٦٤٨ – ٧٨٤ هـ .

٧- (المماليك البرجيّة) : ٧٨٤ – ٩٢٣ هـ .

الحقبة العباسية الأصيلة

وفي هذه الحقبة انتقلت الخلافة في سنة "١٣٢" والتي توافق سنة "٧٤٩" للميلاد من الشّام إلى العراق ، وذلك من بني أميّة الذين كانت دولتهم عربيّة خالصة وعصبيّة إلى "بني العباس" الذين أصبحت دولتهم دينيّة جامعة ، وقد كانت البداوة غالبة على المجتمع الأموي تتبدّى في المثل العليا التي كانت بدويّة جاهليّة ، وفي اللغة أيضاً ، فقد كان عدد من معاني الأدب إسلامياً جديداً أما الأسلوب الذي استهوى الأمويين فقد ظل جاهلياً ، وأما المجتمع العباسي فقد استحدثت فيه الحضارة ، وانتشر الترف ، وإن كانت طبقات كثيرة قد ظلت بعيدة عن تلك الحضارة ، وعن ذلك التّرف ، أما الدولة والحكم فقد كانا متنازعين بين أصحاب تيارين : بين العلويين الشيعة يظاهرهم "الفرس وعرب الجنوب عامة" ، وبين "العباسيين يعضدهم أهل السنة والجماعة وأبناء الدولة" .

وقد كان المقصود من الدعوة إلى "آل محمد" أن يتولى العلويّون الخلافة ولكن العباسيّين وهم من نسل "العبّاس" عمّ الرّسول - ﷺ - كما كان العلويّون وهم من نسل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وبالأحرى هم من نسل "أبي طالب" عمّ الرّسول أيضا استطاعوا أن يستدرّوا بالأمر ، وأن يبايعوا واحداً منهم ، وهو "أبو العباس عبد الله بن محمد" ابن عمّ "علي بن عبد الله بن عباس" الشهير بـ "أبي العباس السفاح" ، وتتبّع السّفاح "بني أمية" وأنصارهم بالقتل والتّشريد ، حتى خلص الأمر لبني العباس ، وفي هذه الأثناء كان السّفاح قد اتخذ "الكوفة" عاصمة له ، ثم هجرها ؛ لأنها كانت مركزاً للعلويين وأنصارهم ، واتّخذ "الأنبار" على "الفرات في شمالي العراق" عاصمة جديدة ، وحكم "السفّاح" أربع سنوات ، ثم توفي سنة ست وثلاثين ومائة للهجرة والذي يوافق سنة أربع وخمسين وسبعمائة للميلاد ، فخلفه أخوه "أبو جعفر المنصور" ، وكان أسنّ منه ، ولكن كانت أمّه أمةً ، فتأخّر السّفّاح ؛ لأن أمّ السّفّاح كانت حُرّة

وقد كانت "الأنبار" متطرّفة في "العراق" ، فبنى "المنصور" بغداد سنة خمس وأربعين ومائة للهجرة ، وجعلها عاصمة الدّولة العباسية ، بعيدة عن الشّام ، ولكنها كانت قريبة من "فارس" ، ومن الجوالي الفرس في العراق نفسه.

١. وقد نبتت في أيام "المنصور" حركات دينيّة ، مثل : "الرّاونديّة" ، وحركة "سُنْباذ" اللتين كانتا تحملان طابعاً مجوسيّاً من الشّيوع في المال ، والنّساء ، وطابعاً وثنياً من تأليه البشر ، فأخذ "المنصور" هذه الحركات بالشّدّة وقتل رؤساءها والدّاعين إليها وكثيراً من أنصارها .

ولعلّ أهمّ ما حدث في أيام "المنصور" أن تولّى الوزارة "خالد بن بَرْمك" . ثم استمرّ بعده ابنه "يحيى" ، وحفيداه : "الفضل" ، و"جعفر" ، يتولونها حتى نَكَبهم "هارون الرشيد" سنة ثمان وسبعين ومائة للهجرة ، والتي توافق سنة ثلاث وثمانمائة للميلاد . بعد أن استبدّوا بكلّ سلطة في الدولة ، وبعد أن طغت أسباب الحياة الفارسيّة على "بغداد" ؛ فانصرف النّاس بعد نكبة "البرامكة" عن أوجه الحضارة الفارسيّة ، وعادوا إلى التّظاهر بالميل إلى البداوة ، وإلى العصبيّة العربيّة

منهم من فعل ذلك خوفاً من أن يُتّهم بمثل ما اتُّهم به "البرامكة" ، فيصير أمره إلى ما صار أمرهم إليه . ومنهم من فعل ذلك مصانعة لأرباب الدّولة ، حيث إن النّاس على دين ملوكهم

وكثر العمران في أيام "هارون الرشيد" ، واستبحرت الحضارة ، وعَمّ التّرف وازدهرت العلوم والآداب ، وعظمت هيبة الدولة ، ويعدّ عصر "هارون الرشيد" ذروة القوّة السّياسيّة للعرب ، وأزهى ما بلغت إليه عصورهم في العمران والحضارة ، والأدب والعلوم .

وخلف "هارون الرّشيد" ثلاثة من بنيه : "الأمين" ، و"المأمون" ، و"المعتصم" ، وكان "الرّشيد" قد قسّم "الإمبراطوريّة" سنة خمس وسبعين ومائة للهجرة ، والتي توافق سنة واحد وتسعين وسبعمائة للميلاد بين "الأمين" و"المأمون" ، فأوصى للأمين بالملك على "غرْب الإمبراطورية" : "بغداد وما يقع غربها" ، حيث يسود العنصر العربيّ ، ويكثر أنصار

الحقبة العباسية الأصيلة

وفي هذه الحقبة انتقلت الخلافة في سنة "١٣٢" والتي توافق سنة "٧٤٩" للميلاد من الشّام إلى العراق ، وذلك من بني أميّة الذين كانت دولتهم عربيّة خالصة وعصبيّة إلى "بني العباس" الذين أصبحت دولتهم دينيّة جامعة ، وقد كانت البداوة غالبة على المجتمع الأموي تتبدّى في المثل العليا التي كانت بدويّة جاهليّة ، وفي اللغة أيضاً ، فقد كان عدد من معاني الأدب إسلامياً جديداً أما الأسلوب الذي استهوى الأمويين فقد ظل جاهلياً . وأما المجتمع العباسي فقد استبحرت فيه الحضارة ، وانتشر الترف . وإن كانت طبقات كثيرة قد ظلت بعيدة عن تلك الحضارة ، وعن ذلك التّرف ، أما الدولة والحكم فقد كانا متنازعين بين أصحاب تيارين : بين العلويين الشيعة بظاهرهم "الفرس وغرب الجنوب عامة" ، وبين "العباسيين يعضدهم أهل السنة والجماعة وأبناء الدولة" .

وقد كان المقصود من الدعوة إلى "آل محمد" أن يتولى العلويّون الخلافة ولكن العباسيّين وهم من نسل "العبّاس" عمّ الرّسول – ﷺ – كما كان العلويّون وهم من نسل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وبالأحرى هم من نسل "أبي طالب" عمّ الرّسول أيضاً استطاعوا أن يستبدّوا بالأمر ، وأن يبايعوا واحداً منهم ، وهو "أبو العباس عبد الله بن محمد" ابن عمّ "علي بن عبد الله بن عباس" الشهير بـ "أبي العباس السفاح" . وتتبّع السّفاح "بني أمية" وأنصارهم بالقتل والتّشريد ، حتى خلص الأمر لبني العباس ، وفي هذه الأثناء كان السّفاح قد اتخذ "الكوفة" عاصمة له ، ثم هجرها ، لأنها كانت مركزاً للعلويين وأنصارهم . واتخذ "الأنبار" على "الفرات في شمالي العراق" عاصمة جديدة ، وحكم "السفّاح" أربع سنوات ، ثم توفي سنة ست وثلاثين ومائة للهجرة والذي يوافق سنة أربع وخمسين وسبعمائة للميلاد ، فخلفه أخوه "أبو جعفر المنصور" ، وكان أسنّ منه ، ولكن كانت أُمّه أمَةً ، فتأخر السّفّاح ؛ لأن أمّ السّفّاح كانت حُرّة .

وقد كانت "الأنبار" متطرّفة في "العراق" ، فبنى "المنصور" بغداد سنة خمس وأربعين ومائة للهجرة ، وجعلها عاصمة الدّولة العباسية ، بعيدة عن الشّام ، ولكنها كانت قريبة من "فارس" ، ومن الجوالى الفرس في العراق نفسه.

١. وقد نبتت في أيام "المنصور" حركات دينيّة ، مثل : "الرّوانديّة" ، وحركة "سُنْباذ" اللتين كانتا تحملان طابعاً مجوسيّاً من الشّيوع في المال ، والنّساء ، وطابعاً وثنياً من تأليه البشر ، فأخذ "المنصور" هذه الحركات بالشّدّة وقتل رؤساءها والدّاعين إليها وكثيراً من أنصارها .

ولعلّ أهمّ ما حدث في أيام "المنصور" أن تولّى الوزارة "خالد بن يَرْمك" . ثم استمرّ بعده ابنه "يحيى" ، وحفيداه : "الفضل" ، و"جعفر" ، يتولونها حتى نكبهم "هارون الرشيد" سنة ثمان وسبعين ومائة للهجرة ، والتي توافق سنة ثلاث وثمانمائة للميلاد ، بعد أن استبدّوا بكلّ سلطة في الدولة ، وبعد أن طغت أسباب الحياة الفارسيّة على "بغداد" ؛ فانصرف النّاس بعد نكبة "البرامكة" عن أوجه الحضارة الفارسيّة ، وعادوا إلى التّظاهر بالميل إلى البداوة ، وإلى العصبيّة العربيّة

منهم من فعل ذلك خوفاً من أن يُتّهم بمثل ما اتُّهم به "البرامكة" ، فيصير أمره إلى ما صار أمرهم إليه . ومنهم من فعل ذلك مصانعة لأرباب الدّولة ، حيث إن النّاس على دين ملوكهم .

وكثر العمران في أيام "هارون الرشيد" . واستبحرت الحضارة ، وعمّ التّرف وازدهرت العلوم والآداب . وعظمت هيبة الدولة ، ويعدّ عصر "هارون الرشيد" ذروة القوّة السّياسيّة للعرب . وأزهى ما بلغت إليه عصورهم في العمران والحضارة ، والأدب والعلوم .

وخلف "هارون الرّشيد" ثلاثة من بنيه : "الأمين" ، و"المأمون" ، و"المعتصم" . وكان "الرّشيد" قد قسّم "الإمبراطوريّة" سنة خمس وسبعين ومائة للهجرة ، والتي توافق سنة واحد وتسعين وسبعمائة للميلاد بين "الأمين" و"المأمون" ، فأوصى للأمين بالملك على "غرب الإمبراطورية" : "بغداد وما يقع غربها" ، حيث يسود العنصر العربيّ ، ويكثر أنصار

"الأمين"، وأوصى "للمأمون" بالملك على شرقيّ الإمبراطورية "ما يقع شرق بغداد" ، حيث يكثر العنصر الفارسي وأنصار "المأمون".

ويبدو أن القسمة على هذا النّحو كانت راجعة إلى أنّ "أُمّ الأمين" كانت عربية ، بينما أُمّ "المأمون" كانت فارسية .

وسرعان ما نشب النّزاع بين الأخوين ، وانتهى الأمر أخيراً بمقتل "الأمين" سنة تسع وتسعين ومائة للهجرة ، والتى توافق سنة ثلاث عشرة وثمانمائة للميلاد "٨١٣"م . وإعادة وحدة "الإمبراطورية" تحت سلطة "المأمون".

بَيْد أن "المأمون" انقلب بعد مقتل أخيه على السّياسة الفارسيّة العَلَويّة ، وترك عاصمته "مَرْو" في "خراسان" ، ثم عاد إلى "بغداد" سنة أربع ومائتين للهجرة النبويّة الكريمة "٢٠٤" هـ . بَيْد أن النّفوذ الفارسي في الدولة والجيش والحياة لم يضعف ، فلمّا جاء "المعتصم" سنة "٢١٨" للهجرة ، والتى توافق سنة "٨٣٣" للميلاد فتح أبواب الجيش "للأتراك" ، وذلك لمقاومة النفوذ الفارسي ، ولكن لمّا كثر الجند من الأتراك في "بغداد" كثر شغبهم فيها . فبنى لهم "المعتصم" مدينة "سامراء" على أربعين كيلو متراً شمالى "بغداد" ؛ لتكون لهم معسكراً .

ويَحسُن بنا أن نذكر أنّ "أُمّ المعتصم" كانت تركيّة ، من أجل ذلك أصبحت "سامراء" في حقبة من حقب الزمن عاصمة للخلافة العباسيّة . وقد حدث في خلافة "المعتصم" حدثان مهمّان ، وهما :

أولاً: القضاء على فتنة "بَابَك الخرميّ" ، وقطع دابر الفتن السياسيّة الدّينيّة.

ثانياً: فتح "عَمُورِيَّة" ؛ وكان ذلك ردّاً على اعتداء "ملك الروم" على "زِبَطْرَة" ، وانتهاكه لحرمة المسلمين بها ، حتى صرخت إحدى المسلمات ، وقالت: "وامعتصماه" ، فحيّش "المعتصم" الجيش الإسلاميّ . وفتح "عَمُورِيَّة" ، وهى إحدى المدن "الرّوميّة" وتقع في "آسية الصّغرى" ، وبذلك كان خضْد شوكة "الرّوم" . فدمّرها وأحرقها وكان ذلك ردّاً حاسماً وصارماً وقاسياً على اعتداء ملك الروم على "زِبَطْرَة" وانتهاكه

لحرمات المسلمين فيها ، وفي ذلك يقول الشاعر "أبو تمام حبيب بن أوس الطائي :

يا يوم وقعة عموريّـــة انصـــرفت ... منك المنى حفلاً معسولة الحلـــب (١)

أبقيت جد بني الإسلام في صنـــعد ... والمشركين ودار الشرك في صـــبب

وخلف "المعتصم" اثنان من أولاده ، وهما : "الواثق" سنة "٢٧٧"هـ- "٨٤٢"م و"المتوكّل" سنة "٢٣٢"هـ- "٨٤٧"م ، ولم يحدث في أيامهما إلا اتّساع نفوذ الأتراك في الجيش ، حتى صار رؤساء الجند يتلاعبون بالخلفاء ، فيقتلون من شاءوا ، ويولّون من شاءوا

وقد بدأ استعلاؤهم بقتل "المتوكّل" نفسه سنة "٢٤٧"هـ ، والتي توافق سنة "٨٦١"م ثمّ لم يبق للخلافة زهْوٌ بعد ذلك ، ولم يبق للخلفاء سلطان (٢).

الأطوار الاجتماعية في العصر العباسي :

إنّ البيئة العربيّة لم تنقلب فجأة ، بل بدأ التبدّل فيها منذ خرجت جيوش الفتح إلى أقصى بقاع في الشّرق والغرب ، ومنذ أخذ الإسلام يسود بين غير العرب ، ومنذ شرع العرب ينحدّرون عن سكنى البادية ، ويترلون الحواضر ، ومنذ ضعف الفاتحون العرب أمام سكّان البلدان الأرقّ ، فتزوّجوا الفارسيّات والتركيّات والرّوميّات

إلاّ أنّ هذا التبدّل التدريجي كان قد بلغ مع قيام الدولة العباسيّة مبلغاً لفت الأنظار ، وغطّى على خصائص الشّعر البدوي الأولى

وقد نتج من ذلك احتكاك العرب بغيرهم من الأمم ، واقتباسهم أموراً كثيرة من الحضارة المادّيّة ، ومن أساليب التّفكير ، ثم إنّ الموالي (المسلمين من غير العرب) الأوّلين حفظوا بكثير من أساليب تفكيرهم ، ومن عاداتهم في الجدال خاصّة ، وأخذوا

---

١ - النبوغ

• تاريخ الأدب العربي ٣٦/٢ بتصرف

• مقتطف من رحيق الأدب العباسي . لشيخنا وأستاذنا المرحوم الدكتور / عبد السلام بن الحمد سرحان ص١٣٨ .

٢ - تاريخ الأدب العربي : للدكتور / عمر فروخ ٣٣/٢ وما بعده بتصرف

"الأمين"، وأوصى "للمأمون" بالملك على شرقيّ الإمبراطورية "ما يقع شرق بغداد" ، حيث يكثر العنصر الفارسي وأنصار "المأمون".

ويبدو أن القسمة على هذا النّحو كانت راجعة إلى أنّ "أمّ الأمين" كانت عربية ، بينما أمّ "المأمون" كانت فارسية .

وسرعان ما نشب النّزاع بين الأخوين ، وانتهى الأمر أخيراً بمقتل "الأمين" سنة تسع وتسعين ومائة للهجرة ، والتى توافق سنة ثلاث عشرة وثمانمائة للميلاد "٨١٣"م . وإعادة وحدة "الإمبراطورية" تحت سلطة "المأمون".

بَيْد أن "المأمون" انقلب بعد مقتل أخيه على السّياسة الفارسيّة العَلَويّة ، وترك عاصمته "مَرْو" في "خراسان" . ثم عاد إلى "بغداد" سنة أربع ومائتين للهجرة النبويّة الكريمة "٢٠٤" هـ ، بَيْد أن النّفوذ الفارسي في الدولة والجيش والحياة لم يضعف ، فلمّا جاء "المعتصم" سنة "٢١٨" للهجرة ، والتى توافق سنة "٨٣٣" للميلاد فتح أبواب الجيش "للأتراك" . وذلك لمقاومة النفوذ الفارسي ، ولكن لما كثر الجند من الأتراك في "بغداد" كثر شغبهم فيها ، فبنى لهم "المعتصم" مدينة "سامراء" على أربعين كيلو متراً شمالى "بغداد" ؛ لتكون لهم معسكراً .

ويحسُن بنا أن نذكر أنّ "أمّ المعتصم" كانت تركيّة ، من أجل ذلك أصبحت "سامراء" في حقبة من حقب الزمن عاصمة للخلافة العباسيّة . وقد حدث في خلافة "المعتصم" حدثان مهمّان . وهما :

أولاً: القضاء على فتنة "بَابَك الخرمي" ، وقطع دابر الفتن السياسيّة الدّينيّة.

ثانياً: فتح "عَمُوريّة" ؛ وكان ذلك ردّاً على اعتداء "ملك الروم" على "زِبَطْرَة" ، وانتهاكه لحرمة المسلمين بها ، حتى صرخت إحدى المسلمات ، وقالت : "وامعتصماه" ، فجيّش "المعتصم" الجيش الإسلامي . وفتح "عَمُوريّة" ، وهى إحدى المدن "الرّوميّة" وتقع في "آسية الصّغرى" ، وبذلك كان خضد شوكة "الرّوم" ، فدمّرها وأحرقها وكان ذلك ردّاً حاسماً وصارماً وقاسياً على اعتداء ملك الروم على "زِبَطْرَة" وانتهاكه

لحرمات المسلمين فيها ، وفي ذلك يقول الشاعر "أبو تمام حبيب بن أوس الطائي :

يا يوم وقعة عموريّـــة انصـــرفت ... منك المنى حفلاً معسولة الحلـــب (١)

أبقيت جد بني الإسلام في صـــعد ... والمشركين ودار الشرك في صـــبب

وخلف "المعتصم" اثنان من أولاده ، وهما : "الواثق" سنة "٢٧٧"هـ- "٨٤٢"م و"المتوكل" سنة "٢٣٢"هـ- "٨٤٧"م ، ولم يحدث في أيامهما إلا اتساع نفوذ الأتراك في الجيش ، حتى صار رؤساء الجند يتلاعبون بالخلفاء ، فيقتلون من شاءوا ، ويولّون من شاءوا

وقد بدأ استعلاؤهم بقتل "المتوكل" نفسه سنة "٢٤٧"هـ ، والتي توافق سنة "٨٦١"م ثم لم يبق للخلافة زهْوٌ بعد ذلك ، ولم يبق للخلفاء سلطان (٢).

الأطوار الاجتماعية في العصر العباسي :

إن البيئة العربيّة لم تنقلب فجأة ، بل بدأ التبدّل فيها منذ خرجت جيوش الفتح إلى أقطار شاسعة في الشرق والغرب ، ومنذ أخذ الإسلام يسود بين غير العرب ، ومنذ شرع العرب ينحدرون عن سكنى البادية ، ويترلون الحواضر ، ومنذ شغف الفاتحون العرب بسبيهم الجمال الآرامي ، فتزوّجوا الفارسيّات والتركيّات والرّوميّات

لا أنّ هذا التبدّل التدريجي كان قد بلغ مع قيام الدولة العباسيّة سلعاً لفت الأنظار وخفّض على خصائص الشّعر البدوي الأولى

وقد نتج من ذلك احتكاك العرب بغيرهم من الأمم ، واقتباسهم أموراً كثيرة من أرقى الحضارة المادّيّة ، ومن أساليب التّفكير ، ثم إنّ الموالي (المسلمين من غير العرب) الذين احتفظوا بكثير من أساليب تفكيرهم ، ومن عاداتهم في الجدال خاصّة ، وأخذوا

---

١ - النّيروز

٢ - تاريخ الأدب العربي ٣٦/٢ بتصرف

٣ - رشفات من رحيق الأدب العباسي : للشيخ والأستاذ المرحوم الدكتور / عبد السلام بن أحمد سرحان ص١٣٨ .

٤ - تاريخ الأدب العربي : للدكتور / عمر فروخ ٣٣/٢ وما بعدها بتصرف

يتساءلون عن كثير مما في الإسلام من فروض وأحكام وعقائد ، بعد الموازنة بينها وبين ما عرفوا في أديانهم القديمة – كالتفريق بين ذات الله وصفاته . والبحث في شأن الجنّة والنّار وفي أعمال الإنسان ، وهل هو مخيّر يأتي أعماله حرّاً مختاراً ، أم مسيّر مجبر على أعماله .

وهكذا نشأت منذ أواسط العصر الأموي حركة الاعتزال ، ثم اتسعت في العصر العباسي اتّساعاً كبيراً ، والاعتزال : حركة فكريّة تقوم على أنّ العقل وحده حَكَم في جميع الأمور ، حتّى في العقائد ، ولم يضق صدر الإسلام بهذه الحركة ؛ لأنها حركة أصيلة فيه ولكن أهل الدّولة حملوا الأمر على ظاهره ، فكانوا إذا ضاقوا ذرعاً بخصم سياسي ثم وجدوا عنده شيئاً من حريّة الفكر ، قالوا عنه : إنه زنديق . وأخذوه في الظاهر بهذه التّهمة ، بينما هم كانوا في باطنهم ينقمون منه خصومته السّياسيّة .

وكان أبعد الأسباب أثراً في تبدل المجتمع الإسلامي : الزواج بغير العربيات ، فقد تبدلت به الحياة البيتية في المطعم والملبس ، وآداب السلوك ، وفي نشوء جيل له عمومة عربيّة وخؤولة فارسيّة أو روميّة أو تركيّة .

وبينما كان العرب الأوّلون خُلّصاً ، لا يرون للأمم على العرب فضلاً في شيء أصبح الجيل المولّد الجديد يتعصب أيضاً لخؤولته ، ويرى أن العرب ليسوا أفضل من سواهم في كل شيء ، هذه التسوية بين غير العرب وبين العرب هي التي سمّاها أهل الحمية العربية "الشعوبية" .

وكان في البيئة العباسيّة طبقة أثرت في حياة المحدثين تأثيراً عميقاً ، تلك هي طبقة الجواري ، والجارية في الأصل : هي الفتاة ، أو الفتية من النساء ، ولكنها أصبحت تطلق على الإماء – أي الجواري المملوكات – على أنّ الجواري في العصر العباسي لم يكنّ يمتهنّ في خدمة البيوت ، أو أننا نحن لا نعني هؤلاء منهن ، بل كان هنالك أستاذون وأستاذات يعلّمون الجواري أصناف العلوم ، كالفقه ، والكلام ، وأنواع الفنون كالغناء والرقص والشّعر حتى إنهن كنّ يُتّخذن للمباهاة والمناظرة ، وقد بلغ ثمن الجارية مثل هذه مئات ألوف الدراهم أو الدنانير .

وكثر التقرب "التشبّه بالعرب" بين الموالي ، وبلغ من إعجابهم بالعرب أنهم كانوا يلفّقون لأنفسهم أنساباً عربيّة ، فأبو تمام الرومي أصبح "حبيب بن أوس بن الحارث بن قيس بن عدى بن عمرو بن الحارث بن طئ بن أدد بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان" .

وهكذا أصبح المسلمون من التّرك والفرس والرّوم يشعرون شعوراً قومياً عربياً فاللّغة العربيّة أصبحت لغتهم ، والتّاريخ العربى تاريخهم ، والحياة العربية حياتهم ، حتّى إنّ الذين لم يدخلوا في الإسلام بل ظلّوا في أهل الكتاب ، من النّصارى واليهود والصّابئة ، كانوا لا يختلفون في شعورهم الظاهر عن المسلمين في شئ ، وربما تسمّوا بالأسماء الإسلامية وتكنوا بالكنى العربية.

إنّ شكل الدولة والحكومة الذى كان للعرب قبل الإسلام لم يصلح للإمبراطورية الجديدة وللمجتمع الجديد ، وكان للبلاد المفتوحة حكومات ، فلم يستنكف العرب أن يستفيدوا من اختبار من نزل في تلك البلاد قبلهم من الدول ، فاستعانوا بالأنظمة القديمة ورجال الدول القديمة . وبما أن الفرس هم الذين ساعدوا العباسيين على نيل الخلافة لم يكن مستغرباً أن يلقى العباسيون قياد دولتهم إلى الفرس جملة . حتى أصبحت الدولة العباسية فارسية في كل شئ ، وحتى أصبح الفرس والخراسانيون خاصة يدعون "أبناء الدولة" . فأثار ذلك نقمة العرب - والشّيعة منهم خاصّة - على العباسيّين [1].

خصائص الأدب العباسي :

إنّ الأدب العباسي الذي ساد في صدر الدّولة العباسيّة يسمّى "الأدب العباسي" نسبة إلى الدّولة التي قيل في أيامها ، ويسمّى "الأدب المولّد" ؛ لأن معظم الأدباء في ذلك العصر كانوا مولّدين (مولّد بين أبوين أحدهما عربي والآخر غير عربي) ، أو "الأدب المحدث" ؛ لأن أولئك الأدباء كانوا محدثين (جدداً أو متأخرين ، بالإضافة إلى أدباء الجاهلية وأدباء العصر الأموي) .

---

١ - تاريخ الأدب العربى / عمر فروخ ص٣٨ وما بعدها .

ثمّ إنّ الأدب نفسه كان بهذا المعنى مولّداً ، لم يكن عربياً خالصاً في معانيه وأسلوبه فقد دخل في الأدب العربي فنون وأغراض ومعان لم يألفها الأدب العربي من قبل كالغزل بالمذكر ، والخمريات ، والتوفّر على الأوصاف الحضريّة ، وإهمال العصبيّة العربيّة البدويّة ثم دالت دولة الجمل والطّلل ،وقام على أنقاضها "دولة الرياض والحسان" ، وزالت من الشعر المطبوع بالطّابع الجديد آثار التّقليد للأقدمين والاحترام لهم ، وحلّ مكانها النّفور من حيانهم وأغراضهم ، وبدأ الابتكار ، ثم مات التّستّر والكناية ، وظهر مكانهما التّصريح وقلة المبالاة .

أما الأسلوب :

فدخل عليه شئ من الضّعف في معرفة خصائص الألفاظ ، وفي التّركيب أيضاً ولكن اكتسب رقّة في التّعبير ، ودخل عليه التّكليف بالإكثار من الصناعة (الجناس والطباق خاصة) وتطوّر النّثر في العصر العباسي تطوّراً كبيراً ، وبدأ التّأليف على ما نعرف اليوم .

وحدث تطوّر آخر في الشّعر ، إذ مال المحدثون إلى الأوزان القصيرة ، وإلى نظم المقطعات (الأبيات المعدودة في أغراض محدّدة) ، كما أحبّوا القوافي التي كانت إلى ذلك الحين مهجورة أو شبه مهجورة ، فبنوا بعض مقطعاتهم على ما غرب من الذال والطاء والضاد ، فلم تنفر في السمع ؛ لأنهم لم يطلبوا القصائد فيضطروا إلى الاستعانة بقوافٍ غريبة .

الألفاظ الجديدة :

إن البيئة العباسية بما جدّ فيها من مظاهر الحضارة المادية ، ومن أوجه الثقافة الأجنبية خاصة ، وبما حدث فيها من جوانب الحياة الاجتماعية اقتضت ألفاظاً جديدة ؛ للتعبير عن تلك المظاهر والأوجه والجوانب ، وقد تحلّت العبقرية اللغوية في العرب عن ثلاثة أنواع من الألفاظ :

الألفاظ المولدة :

وهي صيغ منتقة من جذور عربية ، نحو "تلاشى" أي: اضمحلّ ، و"استأهل" بمعنى "استحق" ، و"الإيقاع" : أي الضرب على الدف ونحوه على نظام معيّن ، وكذلك لفظة "أدب" الدّالة على الإنتاج الراقي من الشّعر والنّثر.

وربّما كان التّوليد في استعمال صيغة عربية قديمة لتأدية معنى جديد ، نحو: "استعرض" ، فإن معناها الجاهلي "قتل بالسيف" ، فاستعملت في العصر العباسي بمعنى "تصفح الأوجه المختلفة في شئ ما" ، كقولنا اليوم : "استعرض القائد الجيش" .

ثم حدث في البيئة العباسية مظاهر ومعان لم يجد العرب لها في لغتهم ألفاظاً تؤدّيها من قُرب أو من بُعد ، فعرّبوا ألفاظها الأجنبية (أي هجروا اللّفظ الأجنبي في صيغة عربية قدر الإمكان) ، نحو : "أندزاه" الفارسية ، فإنها أصبحت هندسة ، و"كليما" اليونانية فإنها أصبحت "إقليم" . فهاتان وأمثالهما هي الألفاظ المعرَّبة .

وبقى عدد من الكلمات لم يمكن تعريبها أيضاً ، فظلّت مدّة على لفظها الأجنبي نحو : "أبا ذميا" ، "اسطقسى" ، "اسطرونوميا" . ثم أوجدت لها ألفاظ عربية هى : "الوباء" "العنصر" . "الهيئة" أو "الفلك" . ثم بقى ألفاظ لم يجد العرب حاجة إلى تعريبها . أو لم يتأتّ لهم تعريبها ، نحو : "قانون" ، "جغرافية" "اسطرلاب" "كاغد" الخ ، وهذه كلها تسمّى الألفاظ الدخيلة ؛ لأن المُعجمة ظلّت ظاهرة عليها .

المذهب البغدادي ، والمذهب الشيعي :

انقسم الشّعراء منذ الجاهليّة إلى فريقين :

- فريق أخذ شعره بالتّنقيح والتّهذيب ، مثل "أوس بن حجر" ، و"زهير بن أبى سلمى" و"النابغة الذبياني" .
- وفريق حرى في نظم الشّعر على السّليقة ، مثل "طرفة بن العبد" ، و"عنترة" و"الخنساء" .

وكانت قيمة شعر الفريق الثاني بالمعاني التي فيه ، أما تراكيبهم فكانت تتعقّد أحياناً حتى تكاد تستغلق ، كما نرى في شعر "طرفة" ، أو تضعف حتى تَرُكّ ، كما نرى في شعر "عنترة" .

أما الفريق الأوّل فكانت قيمة شعرهم في العناية بالتّعبير عن المعاني ، وفي تطلّب التّشابيه والاستعارات ، وإخراجها مخرج الصّور الشّعرية .

وعاش المذهبان إلى العصر الأموي ، "فالأخطل" كان من الذين يأخذون شعرهم بالتّنقيح ، بينما "عمر بن أبي ربيعة" كان يجري في شعره على السّليقة . فلما جاء العصر العباسي كان الميل فيه إلى نظم الشّعر سليقة وطبعاً . كما نرى عند "بشار بن برد" ، و"أبي نواس" ، و"ابن الرومي" .

وبما أن معظم الشعراء الذين كانوا يفضّلون المعنى على اللّفظ كانوا يعيشون في "بغداد" ، فقد عُرفت طريقتهم باسم "المذهب البغدادي" ، ثم كان هنالك شعراء مالوا إلى "التأنّق" في اللّفظ . وبما أن معظم هؤلاء كانوا ممن نشأوا في الشّام ، ثم اتّفق أن انتقلوا إلى بغداد ، مثل "أبي تمام" وتلميذه "البحتري" ، أو كانوا من الذين أثروا "الشام" في السكنى مثل "ديك الجن الحمصي" أستاذ "أبي تمام" ، ومثل "المتنبي" ، و"أبي فراس" ، و"المعرّي" — فقد سمّيت طريقتهم في الشّعر "المذهب الشامي" .

ويَحسن أن نشير هنا إلى أن نفراً من شعراء "بغداد" "كمسلم بن الوليد" ، و"الشّريف الرضيّ" كانوا من أتباع "المذهب الشّامي" ، ثم إننا كثيراً ما نجد لأتباع المذهب الشّامي مقاطع وقصائد تجري على المذهب البغدادي ، كما نرى للبغداديين أبياتاً يتأنّقون فيها ويغالون [1] .

خصائص الشعر الشامي :

قليلاً ما يميل الشّاعر الشامي إلى "الهزل" أو "المرح" في شعره ، فمِن أبرز خصائص الشّعر الشّامي ما يلي :

---

١ - تاريخ الأدب العربي : للدكتور / عمر فروخ ص٤٢ .

أما النثر :

فقد كان أكثر تطوراً واتساعاً في العصر العباسي من الشعر ، حيث نشأت التّوقيعات وهي جُمل قصار مقتبسة ، أو منشأة كان الخلفاء خاصّة يوقّعون بها ، ومن هنا جاء اسمها في آخر القصص ، وهي الرّقاع والأوراق التي تعرض عليهم ، وفيها اقتراح بعمل أو طلب من محتاج ، أو حكم من قضاء ، أو مبلغ من المال للصّرف والإنفاق ، ومع أن التّوقيعات كانت معروفة منذ عصر الخلفاء الراشدين ، لكنها قد اتسعت في العصر العباسي اتساعاً جعلها من خصائص هذا العصر

فمن التوقيعات العباسية ما يلي :

شكا أهل الكوفة إلى "أبي جعفر المنصور" سوء معاملة "عاملهم" ، والعامل وقتذاك : هو الحاكم الذي يحكمهم ، وقد كلّف بجمع الضرائب منهم ، فوقّع "أبو جعفر المنصور" في أسفل رُقعتهم التي كتبوا عليها شكواهم ، والتي رفعوها إليه في هذا الموضوع :

"كما تكونوا يؤمّر عليكم" ، وردّ "أبو جعفر المنصور" شكواهم وطلبهم ، ولم يغير "العامل" – يعني أميرهم وحاكمهم

واتّسعت الكتابة الدّيوانية : وهي تبادل الرّسائل بين الخلفاء والولاة ، وكثرت أيضاً الرسائل الإخوانية ، والتي يتبادلها الأصدقاء والخلّان فيما بينهم ، وبذلك قلّ واضمحلّ شأن الخطابة.

التدوين والتأليف :

إن المظهر الأدبي الذي برز في العصر العباسي بُروزاً عظيماً هو "التدوين" ، فقد كان الأدب القديم يقوم على الرواية فحسب ، يتناوله الرواة باللسان ، أما في العصر العباسي فقد غلب "التدوين" يعني الكتابة وتدوين ما يُسمع للاحتفاظ به إلى وقت الحاجة ، يقول الشاعر :

العلـــم صيـــدٌ والكتابـــة قيـــده قيّد صُيودك بـــالقيود الموثقـــة

وقد تناول التدوين جوانب كثيرة ، منها :

أولاً : إثبات الرّوايات كما سمعت ، وخاصة فيما يتعلّق بالحديث والتاريخ.

ثانياً : إثبات معاني الروايات ، وذلك بعد إيجاز ما طال منها ، أو ما تكرّر فيها وخصوصاً فيما يتعلّق بتاريخ الأدب ، وبالأحوال الاجتماعيّة عند تعدّد الروايات .

ثالثاً : تنسيق الرّوايات . وهو "جمع المتشابه منها بقد الإمكان في محلٍ واحد ورواية واحد" مثلما نجد ذلك في كتاب "الكامل" للمبرّد ، على أن هذا التنسيق لم يكن جامعاً ، فقد ينسى المدوّن أمراً فيعود إلى ذكره في مكان تالٍ للمكان الأول .

رابعاً : التأليف . وهو أن يصنع المدوّن نظاماً معيّناً لمادّته الأدبية ، أو العلمية كما نشاهده في كتاب "كليلة ودمنة" لابن المقفّع ، وكتاب "الحيوان" للجاحظ.

خامساً : النّقل : وقد اتّسع النّقل في العصر العباسي ، ودون المنقول من الحكم والآداب والسّلوك ، وفنون العلم والفلسفة عن اللغة الفارسيّة والسّريانيّة واليونانيّة والهنديّة وربما كان الذي دوّن الروايات يُبدي رأياً بعد رأي في صحّة الرّواية أو في قيمتها أو يفسّر ما يدوّن من بعض الشعر أو النثر ، وذلك طليعة النّقد . ثم إن هؤلاء جعلوا في كتبهم مقاطع خاصّة "بالنقد اللغوي" أو "اللاعي" أو "الادبي" ثم نشأت فيما بعد كُتُب النّقد .

المذاهب اللغوية والأدبية:

إنّ جميع بحوث العرب في اللّغة يعنى في "الألفاظ والتراكيب" ، وفي صيغ الكلمات المتباينة وفي الإعراب ، وفيما ورد عن العرب ، وما لم يَرِدْ ، وفيما ورد عن قبيلة دون قبيلة إنما قصد بها ضبط لغة القرآن حتى يظلّ القرآن يُقرأ كما أُنزل على رسول الله ، سيدنا محمد ﷺ فقرأه الرسول – عليه السلام – على المسلمين الأوّل

ومن الواجب أن نعلم أن جميع أشعار العرب الجاهليين ، وأخبارهم ، وأمثالهم إنما قُصد به أيضاً ما قُصد من جميع لُغاتهم في ألفاظهم وإعرابها ، ولا بدّ من فهم ما يسمّيه مؤرّخو التاريخ والأدب : الخلاف بين علماء البصرة وعلماء الكوفة في ذلك كلّه

من اعتبار ما يلي :

أولاً : إن اللغة تتطوّر بالإضافة إلى الأمكنة والأزمنة ، حتى تظلّ موافقة لحاجات المتكلّمين بها ، وقد اختلفت اللغة العربية بحَسْب ذلك بين "القبائل الشمالية" نفسها قليلاً كما اختلفت "لغة العرب الجنوبيين" لغة القبائل اليمنية كثيراً ، حتى أصبح أهل اليمن قبل الإسلام يتكلّمون لغة مخالفة للغة "مُضَر" وهم "عرب الشمال" .

ثانياً : لما نزل القرآن الكريم نزل بلغة "قريش" ، ولغة "قريش" يومذاك أفصح قبائل العرب لدى علماء اللغة ، قد ظل ما يبعد عن لغة قريش في لفظه وصيغته وإعرابه غريباً نادراً في اللغة العربية .

وجدير بالذكر أن نقول : إن علماء اللغة حين جمعوا ألفاظها لم يقوموا بجمع ألفاظ "مضر" فحسب ، بل جمعوا كلّ ما سمعوه من "البدو" ، حيث إن "البدو" كانوا في رأى أولئك العلماء يتكلّمون سليقة ولا يخطئون .

من هذا الفَرْض انطلق العلماء يصنّفون الألفاظ : فصيحة ، وغريبة ، وحُوشيّة ودخيلة .

ثالثاً : إن الذي نسمّيه "اختلاف الرواة" ليس في الواقع سوى تمسّك كلّ فريق بما سمع في البيئة المحيطة به ، ويبدو أن الفرق بين رأى علماء البصرة ، ورأى علماء الكوفة في طُرق اشتقاق الألفاظ ، وفي الدِّفاع عن بعض أو جلّ الإعراب ، وفي إقامة الأدلة على رأى دون رأى إنّما هو من عَمَل العلماء المتأخّرين ، وقد بدأ مع "المبرد" و"ثعلب" في الأغلب الأعم .

العوامل المؤثرة في الأدب العباسي :

أولاً : الحياة السياسية :

لم يكن ظهور الدولة العباسية على مسرح السياسة العربية أمراً مفاجئاً للأمّة العربية خاصّة ، والعالم أجمع بصفة عامة ، فقد كانت هناك مقدّمات واستعدادات أخذت تتبلور

في نفوس حكّام "بني العباس" منذ أن ولي "أبو بكر الصديق" أمر الخلافة .

وزادت رغبة تولّي الأمر بعد نهاية عهد "أبي بكر" ، وقيام "عمر بن الخطاب" بالأمر ثم "عثمان بن عفان" . فالقوم يجمعون على أن أحقّ الناس بالخلافة هم "بنو العباس" الذين ينتمون إلى ﷺ بصلة الرحم القريبة ، حتى عن "علي بن أبي طالب" وأبنائه .

فلم تكن نفوس "آل العباس" مهيّأة أو مستريحة لقبول أمر الخلافة للخلفاء الراشدين جميعاً ، كذلك ملأها الحقد والبغض والنّفور مع الباغضين والنّافرين من "بني أمية" وولاتهم ، وكانوا دائماً يتحيّنون الفرصة المواتية لاسترجاع الأمر المسلوب في اعتقادهم وإعادة الأمور إلى نصابها المستقيم.

وبدأ "بنو العباس" على رأس القرن الأول الهجري يدبّرون في دعوى سرية للقضاء على "بني أمية" ، ويرسلون دعاتهم في الآفاق. خاصّة في "خراسان" و"الكوفة" ، وظلوا يتناوبون الدعوة فيها بينهم ، حتى تمكنوا من القضاء على الدولة الأموية ، وكان ذلك على يد "أبي العباس السفاح" الذي رأى أن يتخذ الهاشمية بقرب الكوفة مكاناً مختاراً له وحاضرة الدولة العباسية.

وكان همُّ العباسيين القضاء التامّ على كل من يناصبهم العداء من الأمويين ، وكذلك التّخلص من عنصر العلويين ، أتباع سيدنا "علي بن أبي طالب" وأبنائه ، وكل من تشيّع لهم .

وإذا كان الأمويون قد خدَعُوا "علي بن أبي طالب" ، وسلبوه الخلافة وأبناءه ، فإن العبّاسيين لعبوا نفس الدّور ، وخدعوا أتباع العلويّين ، وتظاهروا أنهم ليسوا طلاب خلافة فنصبوا أنفسهم للدفاع عن قضية نصرة الحكم الصالح ونصرة الحق والعدل على الباطل والظلم (١).

ومن هنا فقد تعدّدت الآراء في الأسباب التي أدّت إلى ضعف الدولة الأموية

---

١ ـ اراء الشعر العربي ـ مذاهبه وفنونه ص١٥٦ وما بعدها : د/ عبد الرحيم محمود زلط.

ثم سقوطها في سنة ١٣٢هـ : فمن المؤرّخين من أرجع ذلك إلى انشغال خلفاء بني أمية بالملذات والشهوات عن تفقّد أحوال الرعيّة وأمور الدولة، وظلمهم الرعيّة ، حتى يئس الناس من إنصافهم ، فتمنّوا الراحة منهم .

وأرجع الدكتور / حسن إبراهيم أسباب انهيار الدولة الأموية إلى تحلُّل الأسرة المروانية من داخلها ، ووقوع النّزاع على السّلطة بين أفرادها .

كما عزا بعضهم الأسباب إلى الصراع القبلي ، واضطراب النّظام المالي للدولة وظهور الطّبقيّة بشكل حاد بين العرب والموالي .

وكل هذه الأسباب أو بعضها يصلح تفسيراً لانهيار دولة بني أمية ، بالإضافة إلى العنصر الباوي للأمويين ، والذي كان يمثّل شوكة في حلق الأمويين . وأعني به "الشّيعة" الذين كانوا يرون أحقيتهم في ولاية أمر الناس ، ذلك أنّ استشهاد "الحسين" في "كربلاء" وتنازل أخيه "الحسن" عن حقه في الخلافة ، ومبايعة "علي زين العابدين" لـ "يزيد بن معاوية" ثم لـ "عبد الملك بن مروان" . ثم مبايعة "محمد بن علي" لـ "عبد الملك" نفسه – كل ذلك لم يكن معناه مطلقاً أنّ "الشيعة" في هؤلاء الذين تنازلوا عن حقهم إلا أنهم مغلوبون على أمرهم . وحين مات "محمد بن علي" علا فيه بعضهم فأنكر موته ، وقال إنه تغيب وسيرجع وأشار إلى ذلك شاعرهم "السيد الحميري" فقال :

ألا إنّ الأئمّـــة مـــن قـــريش ... ولاة الحـــقّ أربعـــة ســـواء

علـــيّ والأئمّـــة مـــن بنيـــه ... هم الأسـباطُ لـيس بهـا خفـاء

فسـبطٌ سـبط إيمـان وبِـر ... وســـبط غيّبتـــه كـــربلاء

وسبطٌ لا يـذوق المـوت حتّـى ... يقـود الخيـل يقـدمها اللـواء

وقد طالت فكرة الإمام المستتر ، وعودته ذات يوم (يقود الخيل) لكي يملأ العدالة ويعيد الحق إلى نصابه . تمثّل أكثر من رمز يلتف حوله لا العلويون وحدهم . بل كل من يقع عليهم الظلم ويشدون الخلاص .

ومن ثم يمكننا بلغة العصر أن نقول :

إن الشيعة قد مثلت في حياة الدولتين : الأموية ، والعباسية – دور المعارضة السّياسيّة [1].

ولكن ما علاقة الشيعة بالعباسيين ؟ وكيف قامت الدولة العباسية ؟

ينتسب العباسيون إلى "العباس بن عبد المطلب" عم النبي ﷺ ولقد توفي "العباس" في أواخر خلافة "عثمان بن عفان" ، وكان أبرز أبنائه "عبد الله" ، وقد انصرف "عبد الله" إلى التفقه في الدين ، حتى صار حجة في التفسير والسنة ، ولم تكن له مطامع سياسية ، أما ابنه "علي" فيبدو أن فكرة الخلافة راودته ، وإن كنا لا نعرف له حركة في سبيل تحقيقها [2]

وإنما بدأت الثّورة على يد ابنه "محمد" ، فحينما آل الحكم إلى "معاوية بن أبي سفيان" بقي نفر من آل "علي بن أبي طالب" رضي الله عنه وشيعته متمسّكين بحقّهم في الخلافة وساعين إليها سعياً ظاهراً أو خفياً ،وكان على رأس هؤلاء النفر "أبو هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب" ، وحينما حضرته الوفاة سنة ثمان وتسعين للهجرة أوصى بالإمامة من بعده لـ "محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، شريطة أن ينقل الخلافة إلى "آل علي بن أبي طالب" رضي الله عنه .

وبهذه الوصية وجد "محمد بن علي" ركيزة يعتمد عليها في إثبات حقه في الخلافة وكان حصيف الرأي ، بعيد النّظر ، فعمد إلى تعظيم الدّعوة العباسية سراً ، متّخذاً من الكوفة – دار التشيّع ومستقره – مهداً لها ومركزاً ، ولكنه أسرّ في نفسه أمراً ، وهو أن ينقل الخلافة إلى "بني العباس" ، لا إلى "بني علي" ، وقد استطاع في النّهاية أن يحقّق هدفه ويصل إلى غايته [3] مما أوتي من معرفة وذكاء وخبرة في السّياسة ودهاء

فلقد فكّر أولاً في أنسب الأماكن لنشر دعوته . فقال لدعاته حين أراد توجيههم إلى

---

١ - في الشعر العباسي – الرؤية والفن ص١٦ : د/ عز الدين اسماعيل .
٢ - المرجع السابق ص١٨ .
٣ - دراسات في الأدب العباسي ص٥ .

الأمصار : " أما الكوفة وسوادها فشيعةٌ عليٌ وولده . وأما البصرة وسوادها فعثمانيّة تدين بالكف . وأما الجزيرة فحروريّة مارقة ، وأعراب كأعلاج ، ومسلمون في أخلاق النّصارى وأما أهل الشّام فليس يعرفون إلا آل أبي سفيان وطاعة بني مروان . وعداوة راسخة وجهل متراكم ، أما مكة والمدينة فقد غلب عليهما "أبو بكر وعمر" ، ولكن عليكم "بخراسان" فإن هناك العدد الكثير ، وهناك صدور وقلوب فارغة . لم تتقسمها الأهواء .. وبعد فإني أتفاءل إلى المشرق ، وإلى مطلع سراج الدين ومصباح الخلق".

وواضح أنّ هذا الرجل أحسن اختيار المكان الذي تنبعث منه الدعوة . فهو مكان بعيد عن قلب الجزيرة العربية موطن الدعوة الأموية . لأنه أدرك بفطنته أن دعوته لم تجد طريقها في البلاد التي يسيطر عليها الأمويون ، كما أدرك مدى استجابة الفرس لهذه الدعوة الجديدة ؛ لحبّهم الشّديد لآل البيت ، وبغضهم للبيت الأموي ، الذي أبعدهم عن المناصب العليا في الدولة .

ومن هنا نقول : لم يكتف باختيار أنسب البيئات في وقته لتقبل الدعوة فحسب بل أنسب الجماهير التي يمكن أن يعوّل عليها عندما تخرج الدعوة من السرية إلى العلن ويكون عليها حقاً أن تصطدم بقوات الأمويين المحاربة[1].

ومن الأمور التي ساعدت على تحقيق ما هدف إليه العباسيون أيضاً : اختيار الوقت المناسب . فقد أرجأ العباسيون الدعوة الجهرية إلى عام ١٢٦هـ حين ضعفت الدولة الأموية في حين سلكت الدعوة السرية طريقها في "خراسان" وما جاورها سنة ١٠٣هـ. ١٠٤هـ وهذا إن دل فإنما يدل على أن "محمد بن علي" كان حاد الذكاء ، بعيد النظر . إذ رأى أن القيام بأي ثورة آنذاك سيعرضهم لبطش الأمويين . بل إن مجرد الإعلان عن أنفسهم ودعوتهم سيجر عليهم المتاعب ، وسيفسد الأمر عليهم . ومن ثم فقد آثر أن تظل الحركة سرية . مستفيداً في هذا من التنظيم السري الذي كان لـ "أبي هاشم" .

---

١ - في الشعر العربي – الرؤية والفن ص٢١ .

كما اختار العباسيون لدعوتهم رجالاً أكفاء ، ذوي لسان وجنان يقصون بدعوتهم على أكمل وجه ، وقاموا بها خير قيام ، ومن أشهر هؤلاء الدعاة " أبو سلمة الحلال" الذي كان يلقب بـ "وزير آل محمد" ، و"أبو مسلم الخراساني" الذي كان على رأس هؤلاء الدعاة ذلك الذي كان داهية أريباً ، وداعية بصيراً ، يحسن سياسة الأمور ، ويعرف ما سيكون بما هو كائن[1].

وقد استطاع هذا الرجل بذكائه ودهائه أن يوقع الهزيمة "ببني مروان" ، ولما قيل له : بأي شئ أدركت هذا الأمر ؟ قال : "ارتديت بالكتمان ، وائتزرت بالحزم ، وحالفت الصبر وساعدت المقادير ، فأدركني طلبي ، وحزت بغيتي". وأنشد في ذلك :

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت ... عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا

ما زلت أسعى عليهم في ديارهم ... والقوم في ملكهم بالشام قد رقدوا

حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا ... من نومة لم ينمها قبلهم أحد

ومن رعى غنماً في أرض مسبعة ... ونام عنها تولى رعيها الأسد

وبهذه الأسباب الثلاثة : تخير المكان المناسب ، وتخير الوقت المناسب لإظهار الدعوة ثم اختيار الدعاة الأكفاء والرجال القادرين ، مضافاً إلى هذه الأسباب حسن التخطيط وبراعة التنفيذ - سقطت دولة "بني أمية" ، وقامت دولة "بني العباس"[2].

ولئن سقطت دولة بني أمية وسكت صوتهم بسيف العباسيين ، فلقد ظل الشيعة العلويون يناوئون حكم العباسيّين ، ويرون أنهم قد اغتصبوا حقاً هم به جديرون ، فضلاً عن أن لهم الفضل في نجاح الثورة ، واستمر الصراع بين العباسيين والعلويين مدة طويلة من الزمن .

---

١ - دراسات في الأدب العباسي ص٧ .

٢ - راجع دراسات في الأدب العباسي ص٧ ، ٨ نقلاً عن د / كمال لاشين في كتابه عن تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول

ويطول بنا الحديث لو أننا تتبعنا حركات الشيعة العلويين وثوراتهم ضد العباسيين في كل جزء من أجزاء الدولة الإسلامية ، وكل صقع من أصقاعها ، وإنما الذي نريد أن نؤكد عليه هو أن الشيعة ظلوا طوال الحكم العباسي يمثلون المعارضة النشطة الخطرة على خلفاء "بني العباس" ، وهي معارضة لم تكن ترتكز على قوة السلاح بقدر ما كانت تعتمد على أيديولوجيتها الخاصة في شرعية الحكم وفي نظام الإمامة (الوراثة)، وفي صفات الإمام .

.. واستمر الجدل بين الحزبين : الشيعي ، والعباسي – وقد انعكست أصداء هذا الجدل على المستوى الفقهي ، فكان الصراع بين فقهاء السنة ، وفقهاء الشيعة . كما انعكست أصداء هذا الجدل على المستوى الأدبي ، فظهر الشعر السياسي المعبر عن وجهة نظر العباسيين ، ووجهة معارضيهم من الشيعة .

ويشغل هذا الشعر قدراً غير يسير من أدب ذلك العصر . كان له فعله وتأثيره وخطره لدى الفريقين المتعارضين ، ولدى جماهير الناس ، حيث كان الشعر ما يزال في هذا العصر كما كان في العصر الأموي – يقوم بدور الصحافة الحزبية السياسية [1].

ونحسنا أن نتوقف عند هذه الحرب الشعرية التي دارت بين الشيعة والعباسيين . فهذا "مروان بن أبي حفصة" – شاعر العباسيين المقرب الذي نظم شعره في مدح العباسيين ، نجده في بعض الأحيان يمزج مدحه لهم بتأكيد شرعية خلافتهم ، وأحقيتهم بها دون الشيعة العلويين .

من ذلك قوله في مدح الخليفة "المهدى" :

يا بني الذى ورث النبى محمـــدا ... دون الأقارب من ذوى الأرحـــام

الوحى بين بنى البنـــات وبيـــنكم ... قطع الخصام فلات حين خصـــام

ما للنساء مع الرجـــال فريضـــة ... نزلـــت بـــذلك ســـورة الأنعـــام

---

١ - فى الشعر العباسى – الرؤية والفن ص٤٩ ، ٥٠ بتصرف

ارضوا بما قسم الإله لكم به ودعوا وراثة كل أصيد حام
أنى يكون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام [1]

فهو يشير إلى أن حقهم في وراثة النبى ﷺ تؤكده آيات الميراث في القرآن الكريم فتحسم كل خلاف .. ويقال : إنه كان أشد ما أزعج العلويين في هذا الشعر بيته الذي يقول فيه : أنى يكون – فقد أثار حفيظتهم فردوا عليه شعراً كذلك ، ويقال : إنهم تعقبوا "مروان" نفسه واغتالوه ، وجاء في ردهم على لسان شاعرهم "جعفر بن عفان الطائي" :

لم لا يكون ولن ذاك لكائن لبنى البنات وراثة الأعمام
للبنت نصف كامل من ماله والعم متروك بغير سهام [2]

وبعد مقتل "محمد النفس الزكية" وأخوه "إبراهيم" بأيدي "بني العباس" ، وتشتت العلويين في شتى الأقطار الإسلامية قال "دعبل" قصيدة رائعة فيما حلّ "ببنى علىّ" من النكبات ، وما أصابهم من تشتّت وتشريد واضطهاد ، وضنك في العيش استهلّها بقوله :

بكيت لرسم الدار من عرفات وأذريت دمع العين بالعبرات
مدارسى آيات خلت من تلاوة ومنزل وحى مقفر العرصات
ديار عفاها كل حون مبادر ولم تعف للأيام والسنوات

ثم تحدّث في مقطع منها عن حقّهم المشروع في الخلافة بوصفهم ورثة النبي ﷺ وأنّ أعداءهم ليسوا سوى حاسدين لهم على هذا التّرف ، مما تواتر من خبر الوصيّة "لعلى" وحاقدين عليهم :

فقفا نسأل الدار التي خفّ أهلها متى عهدها بالصوم والصلوات
وأين الألى شطت بهم غربة النوى أفانين في الآفاق مقرفات

---

١ - شعر مروان بن أبى حفصة ص٦٦
٢ - فى الشعر العباسى – الرواية والفن ص٥٠ ، ٥١

هم أهل ميراث النبي إذا اعتزوا وهم خير سادات وخير حمـــاة [1]

وقد استطاع الحزب العباسي أن يستقطب بعض الشعراء الذين لم تكن ميولهم الحقيقية عباسية ، بل ربما كانوا أكثر تعاطفاً مع العلويين . وذلك إما عن طريق التّرغيب أو عن طريق التّرهيب .

وبالطبع وُجد في هذا الجو شعراء التملق والنفاق ، فهذا شاعر متلوّن استطاع بطريقة عجيبة أن يجمع بين ميوله العلوية ومدح العباسيين ، وهو "إسماعيل بن محمد" المعروف بـ "السيد الحميري" ، فقد أكثر من مدح العلويين وندب قتلاهم ، والتغني بفضائلهم وكان تشيّعه لهم واضحاً ، ولكنه – فيما يبدو – استخدم مبدأ "التّقية" الذي كانت الشّيعة تقول به في أن يوجّه بعض شعره إلى مدح العباسيين والتحدّث بأفكارهم .

ومبدأ "التّقية" : هو يدعو الأتباع من الشّيعة إلى كتمان انتمائهم ، والتّظاهر بالطّاعة وأن يعملوا الأعمال المطلوبة إليهم من قبل الولاة الظّاهرين على أتمّ وجه ، حتى لا تخوم حولهم الشّبه إلى أن تنضج الثورة . يقول :

أمـــر علـــى جـــدث الحســـين فقـــل لأعظمـــه الزكيـــة
يـــا أعظمـــاً لا زلـــت مـــن وطفـــاء ســـاكبة رويـــة
وإن مـــررت بقبـــره فأطـــل بـــه وقـــف المطيـــة
وخـــذ المطهـــر للمطهـــر والمطهـــرة النقيـــة
بكـــاء مقولـــة أتـــت يومـــاً لواحـــدها المنيـــة

هو نمط من شعر الشيعة المفعم بحرارة العاطفة

وما يكاد الأمر يستقر لبني العباس حتى نجد "السيد الحميري" يسرع إلى "أبي العباس السفاح" أو خلفائهم – مادحاً له ولعشيرته . ومروّجاً لفكرة من أفكارهم الرئيسية . وهي

---

١ - السابق ص٥٧ .

أنهم سيتبادلون الخلافة في الأرض . وأنها ستظل فيهم إلى أن يظهر "المسيح" ، فيقول :

دونكموهـــا يـــا بنـــي هاشـــم فجـــددوا مـــن عهـــدها الدارســـا

دونكموهـــا لا عـــلا كعـــب من كان علـيكم ملكهـا نافسـا

دونكموهـــا فاقســـموا تاجهـــا لا تعـــدموا مـــنكم لـــه لابســـا

قـــد ساســـها قـــبلكم ساســـة لـــم يتركـــوا رطبـــاً ولا يابســـا

ولســـت مـــن أن تمســـكوها إلـــى منهـــبط "عيســـى" آيســـا

جدير بالملاحظة هنا أن الشاعر يوجه خطابه إلى "بني هاشم" جملة ولا يخص "بني العباس" بمعروف أن العلويين يقطون كذلك .

بالإضافة إلى هذا الصراع الذي كان بين العباسيين والعلويين ، والذي أرّق الخلافة العباسية من بدايتها حتى النهاية ، وجد صراع آخر بين العرب من جهة والموالي من جهة أخرى .

فلقد كان الفرس أسرر العناصر الشرقية في المجتمع العباسي ، فعلى أكتافهم قامت الدولة ، وبسيوفهم رسخت دعائمها . ومن بينهم اتخذ "بنو العباس" وزراء وقواداً ، وليس غريباً أن يستتبع هذا غلبة الفرس وقوة نفوذهم [1]

وبالطبع لم يستسلم العرب لقوة الموالي ونفوذهم . بل قاوموا وكان بين الجانبين صراع عنيف حيناً ، وهادئ حيناً . واتخذ هذا الصراع أشكالاً مختلفة بعضها سياسي يكيد فيه العرب للموالي ويكيد الموالي للعرب ، وقد كان هذا أخطر وجوه الصراع وأعماها في نفس الوقت ، فكانت الرعية تفاجأ بين الحين والآخر بخليفة يطيح بوزير من وزرائه الموالي .

والذي يعنينا هنا هو أصداء هذا الصراع في الأدب . ومن أبرز هذه الآثار الشعرية ما نراه في شعر "بشار" ، و"أبي نواس" .

---

١ ـ في الشعر العباسي ص١٠ : د/ محمد فتوح ص١٩٧ .

من ذلك ما يروى : من أن "المهدي" سأل "بشاراً" فيمن تعتد يا "بشار"؟ فقال : أما اللسان والرأي فعربيان ، وأما الأصل فعجمي ، كما قلت في شعري يا أمير المؤمنين :

ونبئت قوماً بهم جنة ... بقولهن : ذا ؟ وكنت العلم

ألا أيها السائلي جاهداً ... ليعرفني ، أنا ابن الكرم

نمت في الكرام بني عامر ... فروعي وأصلي قريش العجم

فإذا كانت "قريش" تتسم أعلى مكانة بين القبائل العربية ، فإنه انتمى إلى القبيلة التي تناظرهم في الرفعة لدى العجم ، ثم زاده بقوله :

هل من رسول مخبر ... عني جميع العرب

من كان حياً منهم ... ومن ثوى في التراب

بأنني ذو حسب ... عال على ذي الحسب

حذي الذي أسمو به ... كسرى وساسان أبي

وقيصر خالي إذا ... عددت يوماً نسبي

كم لي وكم لي من أدب ... بتاج المعصب

إلى أن يقول :

ولا حذا قط أبي ... خلف بعير جرب

وهكذا يبدأ بالانتساب ، فيعزو نفسه إلى ملوك الفرس من جهة أبيه ، وإلى قيصر الروم من جهة أمه . ولكنه يتطرق إلى دم العرب ، وتحقير شأنهم من خلال تلك الموازنة التي يعقدها بين سيرة آبائه ، وبين جانب من نمط الحياة لدى العرب البداة . حيث يشير إلى رفع عنصريه بالعناء (الحذاء) حافي الجمال الجربة .

وهذه الموازنة بين حياة الأعراب وطراز الحياة التي جلبها الموالي الفرس إلى مجتمع الدولة الجديدة كثيرة في شعره . وهي موظفة دائماً عنده للحط من شأن العنصر العربي

وإبراز مظاهر تخلفه الحضاري في حياته اليومية .

ومن ذلك ما قاله في الرد على أعرابي قال : ما للموالي والشعر؟

أحين كسيت بعد العربي خزاً ... ونادمت الكرام على العقار

تفاخر يا ابن راعية وراع ... بنى الأحرار ؟ حسبك من خسار

وعلى إيقاع هذه الموازنة التي تهدف أساساً إلى تحقير العرب راح "أبو نواس الحسن بن هانئ" يضرب ضرباته ، فيقول :

دع الأطلال تسقيها الجذور ... ويبكي عهد جدتها الخطوب

وخل أراكب الوجناء أرضاً ... تخب بها النجيبة والنجيب

بلاد نبتها عشر وطلح ... وأكثر صيدها ضبع وذيب

فهكذا يصف "أبو نواس" حياة العرب بالخشونة ، وأن المتحضّرين المنعّمين المترفين لا مكان لهم فيها ، فهي حياة جدب وشقاء ، وترحال لا ينتهي على ظهور الجمال في الفيافي والقفار .

كما كان هناك صراع له أثره الكبير على الحياة الأدبية ، هو صراع العرب مع الرّوم وهو صراع قديم منذ الجاهليّة ، ولم تكنّ الصّراعات بين العباسيين والرّوم منذ عهد الخليفة "المنصور" ، وحتى ضعف شأن الخلافة العباسية ، وانقسمت إلى دويلات.

وتابع الشعراء هذه الحروب ، وتلك الصّراعات فكانت أشعارهم وثيقة من وثائق العصر .

وفي تأثير الفرس في الدولة العباسية يذكر الأستاذ / أحمد حسن الزيات : أن الدولة العباسية قد اصطبغت بصبغة فارسية ؛ لأن الفرس هم الذين أوجدوها وآيدوها ، فاتّخذت قعدتها "بغداد" أقرب الأمصار إلى بلادهم ، وأطلق الخلفاء أيدي الموالي في سياسة الدّولة فاستقلوا بشئونها ، واستبدوا بأمورها ، وكالوا للعرب من الحقارة والمهانة صاعاً بصاع فضعفت العصبيّة العربيّة ،وعلا صوت الشّعوبية ، ونتج من ذلك دخول العناصر الفارسيّة

والتركيّة والسريانيّة ، والروميّة ، والبربريّة في تكوين الدّولة [1].

هذا ، وقد كان هدف العباسيّين في سياستهم لدولتهم منذ نشأتهم يتركّز في النّقاط التّالية :

١ – الإلحاح الدائب بأنّ الخلافة حق شرعي لبني العباس .

٢ – مطاردة الشّيعة الذين يزعمون أن لهم الحقّ في الخلافة .

٣ – الاستعانة بالعنصر الفارسي ، وبخاصّة "آل برمك" ، و"آل الفضل".

٤ – القضاء على بقايا الأمويّين .

٥ – استبقاء الهيبة في النّفوس بالتّهديد والوعيد .

٦ – استخدام الدّين في تبرير كل ذلك [2]

ثانياً : الحياة الاجتماعية وأثر العناصر الأجنبية فيها :

الخليفة يتصدّر تاريخ الدولة العباسية ، يبهره ذلك الثراء الواسع الذي كان ينعم به وفي ظلاله خلفاء وأمراء هذه الدولة ، ومن على شاكلتهم من أفراد الطّبقة الحاكمة الوزراء والقادة ، وكبار رجال الدولة ، ومن يرضى عنهم هؤلاء فيقرّبونهم ، من شعراء ، وأدباء وعلماء ، ومثقّفين ، وخوّار ، ومغنيين ، فهؤلاء جميعاً كانوا يعيشون عيشة هنيئة يتمتّعون فيها بكل مظاهر الترف .

فالخلفاء ومن والاهم كانوا يعيشون في أبراجهم العاجية بعيداً عن العامة ، يحميهم الحرّاس والحُجّاب ، كما كان الشأن في بلاط الساسانيين ، كما كانت قصورهم في فخامتها وما تشتمل عليه من مظاهر الأبهة صورة مكرّرة لقصور الفرس إن لم تزد عليها [3].

هذا ، والأسباب التي دعت إلى ترف الطّبقة الحاكمة واضحة لمن يدرس أحوال

---

١ - تاريخ الأدب العربي ص٣٣٣ وما بعدها – دار الثقافة – بيروت – ط١٩٧٨/٢٨ .

٢ - دراسات في تاريخ الأدب العربي – مطبعة المدني – الأدب في عصره الذهبي ص١٨ د/عبد الرحمن عثمان .

٣ - تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الأول ص٤٤ وما بعدها : د/ شوقي ضيف – دار المعارف – ط. التاسعة – سنة ١٩٨٦ .

لعصر الاقتصاديّة ، حيث كانت تحمل إلى خزانة الدولة حمولة الذهب والفضّة من أطراف الأرض .

ونذكر هنا مقولة "هارون الرشيد" حينما رأى سحابة تسير في السماء ، فقال لها : "أمطري حيث شئت ، ففي أي مكان نزلت سيأتيني خراجك".

ومن مظاهر الترف في هذا العصر:

١ – **كثرة العطايا والصّلات** التي كانت تُمنح للشعراء والأدباء ، ومن ذلك ما يروى من أنّ الخليفة "المهدي" منح "مروان بن أبي حفصة" مائة ألف درهم على قصيدة مدحه بها حينما أهداه إياها . والتي مطلعها : "طرقتك زائرة في خيالها" ؟

قيل : عندما سمعها "المهدي" – وكان في صدر مصلاه – زحف حتى صار على بساط إعجاباً بها ، ثم قال له : كم هي ؟ قال "مروان" : مائة بيت .. فأمر له بمائة ألف درهم [1].

فلقد انهالت المنح والعطايا الجزيلة من الخلفاء العباسيين على من ابتسم له الحظّ وضحكت له الدنيا من الشعراء والأدباء والعلماء ، فهذا "البحتري" الذي كان يمدح السوقة فبدا به ما أن اتّصل بـ "المتوكّل" حتى أغدق عليه العطايا والهبات التي جعلته يسير وخلفه العبيد والخدم .

ويروى أن "المأمون" كان كثير البذل والإغداق على حاشيته ، حتى قالوا : فرّق في ساعة واحدة أربعة وعشرين ألف درهم [2].

وعلى الرغم من كثرة العطايا والهبات ، فإننا نجد من الشعراء من يشكو الفاقة وضيق ذات اليد مما جعلنا نعجب أشد العجب من ذلك . عندما نسمع شاعراً يقول :

غنـــى مـــن الآداب لكننـــي إذا نظرت فما في الكف غير الأنامل

---

١ ـ العصر العباسي الأول ص٥٠ .
٢ ـ العصر العباسي الأول ص٤٧ .

وآخر يتشغل بتحصيل لقمة العيش فيقول :

جلوسي في سوق أبيع وأشـــترى　　دليـــل علـــى أن الأنـــام قـــرود

ولا خير في قوم يـــذل كـــرامهم　　ويعظـــم فـــيهم نـــذلهم ويســـود

٢ – بناء القصور والمدن : من ذلك ما يروى من أن الخليفة "أبا جعفر المنصور" بذل الكثير من الأموال في بناء مدينة "بغداد" ، وما فعله الخليفة "الرشيد" في بناء قصره المعروف . والذي وصفه الشاعر "أشجع السلمي" بقوله:

قصـــر عليـــه تحيـــة وســـلام　　نثـــرت عليـــه جمالهـــا الأيـــام

فيه اجتلى الدنيا الخليفة والتقـــت　　للملـــك فيـــه ســـلامة ودوام

قصر سقوف المزن دون ســـقوفه　　فيـــه لأعـــلام الهـــدى أعـــلام

ولقد كان بناء القصور الفاخرة الشاهقة ، والإنفاق ببذخ على تأثيثها وتزيينها – من مميزات العصر . فقد بنى الخليفة "المنصور" قصر (الذهب) في "بغداد" على غرار "إيوان كسرى" . كما بنى "بغداد" بصورة دائرية على غرار "مدينة المدائن" عاصمة "بلاد الفرس" .

٣ – ترف يتمثل في المأكل والمشرب والملبس والزينة واللهو واللعب ، إلى غير ذلك من هذه المظاهر .

هذا عن الغنى والثراء في المجتمع العباسي ..

أما عن ظهور بعض الطوائف على سطح الحياة الاجتماعية ، فقد وجدنا دعاة "الشعوبية" و "أهل الزندقة والإلحاد" ، وأهل المجون – ومع هؤلاء الزنادقة والماجنين وجد تيار معارض لهم ، هو "تيار الزهد" الذي شاع في العصر العباسي ، وتطور فيما بعد إلى أن أصبح نواة للتصوف . كما سنوضح بعد قليل:

أما الشعوبية :

فهي نزعة تفخر بشعبها ضد العرب ، وأول من دعا إليها هم "الفرس" . فقد كانوا

يفخرون بمجدهم التالد ، وحضارتهم التي سبقت كل الحضارات ، فقد كان الفرس على درجة عالية من الحضارة في سالف الأيام، وقت أن كان العرب يعيشون حياة خشنة بين البوادي المقفرة والفيافي الواسعة ، وعلى الرغم من أن الإسلام دعا إلى المساواة بين الناس جميعاً في ظله وتحت لوائه ، فقد نمت في أذهان الفرس هذه النزعة عندما وجدوا أنفسهم يعاملون معاملة سيئة في المجتمع الأموي ، وهؤلاء فريقان :

فريق مقتصد معتدل ، وقف عند حد التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب ؛ استناداً إلى تعاليم الإسلام التي تسوي بين الناس جميعاً :

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ (١)

وفريق متطرّف ، يسعى إلى ازدراء العرب ، والحطّ من قدراتهم ، وتفضيل الشعوب الأجنبية عليهم ، وهذا الفريق كان أكثره من الملاحدة والزنادقة الذين يبغضون الدين الحنيف ، وكل ما يتصل به من عرب وعروبة.

ووضع الشعوبية المتطرفون كتباً في ذكر مثالب العرب وهجائهم ، كما وضعوا قصصاً في الأدب تؤيد هذه الأفكار . من ذلك ما رواه "الهيثم بن عدي" في قصة طويلة تتلخص في أن رجلاً من "تنوخ" نزل حي من "بني عامر" ، فخرجت إليه جارية ، فقالت : من أنت ؟ . فقال : من تميم . فذكرت له أبياتاً في ذم تميم .. فقال لها : لست من "تميم" ، بل أنا من قبيلة "عجل" .. فقالت مثل ذلك .. وما زال الرجل يذكر القبائل قبيلة قبيلة ، وهي ترد الأبيات في ذمها ، حتى استنفد القبائل ولما انتسب إلى "بني هاشم" قالت : أتعرف الحنيفة يقول "بني هاشم" عودوا إلى تحلائكم .

ومنذ عصر بني أمية - وعلى مرأى ومسمع من "هشام بن عبد الملك" - يقول "إسماعيل بن يسار" طاعناً العرب في خفاء :

---

١ - سورة الحجرات : آية رقم (١٣) .

فاتركي الفخر يـا أمـام علينـا واتركي الجور وانطقي بالصواب
واسألي إن جهلت عنـا وعـنكم كسيف كنا في سـالف الأحقـاب
إذ تربـي بناتنـا وتدسـون سفاهم بنـاتكم فـي التـراب [1]

فهو يفخر بقومه الفرس على العرب ، ويرمز للعرب بـ "أمام" ، فقد كان العرب يفاخرون بآبائهم ، وأنهم أعلى مكانة ، وأرقى منزلة منهم ، ويؤكد الشاعر أن قومه أولى بالفخار من هؤلاء .

وفي هذا العصر وجدنا "أبا نواس" ، و"بشارا" ، و"الحزيمي" ، و"إسحاق بن إبراهيم الموصلي" يسيرون على هذا الدرب ، بل أشد ، وتمتلئ بأشعارهم كتب الأدب والتاريخ والأدب دائماً صورة لحياة المجتمع ، بارزة الملامح ، واضحة القسمات ، فنرى فيها نعيم الناس وشقائهم ، وغناهم وبؤسهم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، وأنماط سلوكهم .

والمجتمع في العصر العباسي كان خليطاً من العرب والفرس ، والأتراك ، والزنوج والروم ، والبربر ، واليهود وقد كثر اختلاط هذه الأجناس ، وامتزاجها عن طريق المجاورة والتعامل ، والتزاوج ، وكثر الغلمان والجواري في بيوت المترفين التي كانت بمجالس الشرب والغناء ، كما كثرت الخصومات الدينية والعقدية بسبب تعدد العناصر واختلاف الاتجاهات وكان لأهل السنة والمعتزلة والشيعة أكبر الأثر في الخصومة .

وعندما نستعرض دواوين الشعراء وكتب الأدب ، نجدها حافلة بتصوير مظاهر الحياة الاجتماعية بغناها وفقرها ، وجدها وهزلها ، ورضاها وسخطها ، وغير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية .

فقد أدت حياة الترف ، وكثرة الجواري والغلمان في بيوت المترفين إلى شيوع شعر "الغناء" ، واشتهر به "بشار بن برد" ، و"مطيع بن اياس" وأضرابهما ، وقد اندفعوا ينظمون مقطوعات قصيرة يثيرون بها مشاعر الحب والعتاب ، والصد والدلال ، وما يقترن بذلك

---

١ - القصيدة العباسية – قضايا واتجاهات ص١٢٦ .

كله من محون . وخمر . وغزل فاصح مكشوف . لا يتوارى ولا يستتر .

وكأن الشعراء حين أحسوا بأنهم ينظمون هذا التعر في الجواري لم يجدوا من الحرج ما كان يستشعره أسلافهم حين كانوا يتغزلون بالحرائر المحصنات من بنات العرب .

وما ظنك بتلك المطارحة الصريحة الفاجرة التي يحدثنا "أبو نواس" عن نتائجها في رائيته التي نجتزئ منها الأبيات التالية :

وناهدة الثديين من خدم القصـــر	سبتني بحسن الجيد والوجه والنحر
كلفت بما أبصرت من حسن وجهها	زماناً وما حب الكواعب من أمرى
فما زلت بما أبصرت في كل مشهد	ألينها والشعر من عقـد الســحر
إلى أن أجابت للوصـال وأقبلـت	على غير ميعاد إلى مع العصـــر
فقلت : اشربي إن كان هذا محرّمـــا	ففي عنقي يا ريم وزرك مـــع وزرى

ونمسك عن ذكر بقية القصة . فهي نموذج واضح لأثر الجواري والمغنيات في المضامين الشعرية لذلك العصر .

ولم تكن الجواري كما لم يكن ذيوع مجالس الغناء والطرب هما السببين الوحيدين وراء شيوع ظاهرة الخلاعة والمجون . وما أنتجته من آثار في الشعر والأدب . بل إن اتساع عمران الدولة وازدياد مصادر الثروة قد ساعد من ناحية اخرى على الاستكثار من أسباب اللهو ، ومع رغبة الخلفاء والأمراء والوزراء في الأدب والعلم . فإنهم سايروا الحضارة فكانوا يعقدون مجالس الأنس والشراب ، يحضرها الشعراء والظرفاء والمغنون . فكثر في الشعر أهل الخلاعة والمجون والتهتك .

وقد كان لهذه الحياة العابثة أثرها الأكيد في أدب هذه الفترة . ومن بين ما أسفرت عنه ذيوع شعر "الخمر" وانتشاره بشكل لم يسبق له مثيل ، كما أسفرت أيضاً عن مظهر من مظاهر التهتك لم يلبث أن انعكس على الأدب العباسي ، وبخاصة الشعر ، وهذا المظهر هو "التغزل بالغلمان" ، فلم يبق شاعر من المقيمين في "بغداد" إلا واشتهر بغلام يعشقه

ويتعزل به ، ولم ينج من هذا الدنس غير الذين ظلوا على أخلاقهم بعيدين عن مفاسد المدنية [1].

ومما يتصل بتأثير الحياة العابثة والحضارات والعقائد الدخيلة ، ظاهرة الزندقة التي فشت كثيراً في العصر العباسي ، فقد شاع الجدل الديني ، ومذاهب علم الكلام ، وتنوع البحث الفلسفي ، وقد اقترن اسم الزنادقة بالمجان .

وقد اشتهر بالزندقة في هذا العصر كثيرون ، ومنهم طائفة غير قليلة من الشعراء والكتاب ، في مقدمتهم "الحمادون الثلاثة" : ("حماد بن عجرد" ، "حماد الراوية" ، "حماد بن الزبرقان") – و"بشار بن برد" ، و"ابن المقفع" ، و"مطيع بن إياس" ، و"صالح بن عبد القدوس" ، و"ابن مناذر" وغيرهم .

فهذا "بشار" يذكر الظلام والنور ، ويمجد عبادة النار في بيته القائل :

الأرض مظلمة والنـــار مشـــرقة والنار معبودة قـــد كانـــت النـــار

وهو القائل :

إبليس أفضـــل مـــن أبـــيكم آدم فتنبهـــوا يـــا معشـــر الفجـــار

النـــار عنصـــره وآدم طينـــة والطين لا يســـمو سـمو النـــار

وقد كانت نهايته وخيمة ، فقد ذاع أمره ، وفشا سره بين الناس ، حتى قتله "المهدي" فوضع حداً لإلحاده وزندقته .

ومن تمام الصّورة أن نشير إلى جانب آخر يقابل (جانب اللهو والمجون والزندقة) وهو جانب الإيمان والزهد الذي ألمحنا إليه آنفاً ، ويمثل هذا إلى جانب كثرة كاثرة من المسلمين في ذلك العصر بعضهم زهد تمرداً على ما كان يراه من مظاهر الخلاعة والعبث وبعضهم نتيجة عزوف تلقائي عن الجاه والسلطان . وبعضهم إيماناً بما في الزهد من قلة في متاع الحياة ومؤن العيش.

---

١ - في الشعر العباسي : د / محمد فتوح ص٢٥ .

ومن هنا ذاعت في آفاق ذلك العصر أسماء الأتقياء ، من أمثال : "سفيان الثوري و"موسى الأسوارى" ، و"عبد الله بن المبارك" ، و"سفيان بن عيينة" ، و"عمرو بن عبيد" وغيرهم ممن لا يزال ورعهم وزهدهم في الجاه والسلطان مفخرة من مفاخر الحياة المسلمة لذلك العهد .

ولعل أبرز مَنْ مثّل هذا التيار في الإبداع الشعري هو "أبو العتاهية" الذي استقر به الأمر في النهاية على إسلام راسخ ، وزهد في الدنيا ، وعزوف عن متع الحياة ومباهجها ومن لطيف معانيه في تحقير شأن المال والحث على التحرّر من أسره بإنفاقه في وجوه الخير قوله :

إذا المرء لم يعتق من المال نفسه ... تملكه المال الذي هو مالكه

ألا إنما مالي الذي أنا منفق ... وليس لي المال الذي أنا تاركه [1]

ومن آثار العناصر الأجنبية في الحياة الاجتماعية تقليد العرب للعجم والزواج بغير العربية ، والاندراج بالعنصر الأجنبي ، يقول الدكتور / عبد الرحمن عثمان : " وقد هاجر العرب من "الكوفة" و"البصرة" و"الشام" إلى عاصمة الخلافة العباسية ، وأقاموا مع العجم مجتمعاً جديداً له خصائصه الجديدة وطابعه المستحدَث ، وتلك أول مرحلة من مراحل التغيير التي أكرهت العربي على أن يتنازل عن بعض طباعه ، ثم قبل مختاراً أن يمتزج بالعنصر الاجنبى الذي كان يستعلى عليه من قبل ، فتزوج بغير العربية ، واكتسب طباعاً كانت غريبة عنه .

والعرب قلدوا العجم في كل شئ حينذاك ، حتى في ردئ العادات ، إلا قليلاً ممن عصم الله – تعالى – فكنت ترى العربي في زى الوسط الذي يعيش فيه ، ويجعل طعامه وشرابه على مثال أطعمتهم وأشربتهم ، وكان يخوض أحياناً في لهوهم ومتعهم .

ويضيق المقام عن ذكر كثير من النماذج الشعرية والنثرية التي تصور كل مظاهر الحياة

---

١ - فى الشعر العباسى : د / محمد فتوح ص٢٥ .

الاجتماعية ، وتكشف عن مدى تأثيرها في الحياة في هذا العصر ، وحسبنا ما سمعناه من تمادح ، ولمن أراد المزيد فليرجع إلى قائمة المصادر والمراجع التي اهتمت بهذه الناحية .

ثالثاً : المؤثرات الثقافية في أدب هذا العصر :

لقد نشطت الحركة الثقافية في هذا العصر نشاطاً كبيراً ، كما ظهر في هذا العصر عدد كبير من العلماء والرواد والأوائل في مختلف فروع المعرفة آنذاك. فازدهرت علوم اللغة العربية من نحو ، وصرف ، وبلاغة – كما ازدهرت العلوم الدينية والتشريعية .

❖ ففي الفقه والتشريع ظهر الأئمة الأجلاء : "مالك" . و"أبو حنيفة" ، و"الشافعي" و"أحمد بن حنبل" . و"الحسن بن زكريا العدوي" ، و"يحيى بن صاعد" ، و"أبو بكر بن خزيمة" . و"أبو يعلى الموصلي".

- وفي الحديث لمع نجم الأئمة الأعلام : الإمام "البخاري" . والإمام "مسلم" و"أصحاب السنن الستة"
- وفي علوم اللغة : "أبو عمرو بن العلاء" . و"الخليل بن أحمد" ، و"سيبويه" و"الكسائي" ، و"الأصمعي" . و"ابن درستويه" ، و"الرجاج" . و"الأخفش" و"ثعلب"
- وفي رواية الشعر وجمعه وبقد اشتهر : "المفضل الضبي" ، و"حماد الراوية" ، و"أبو عمرو الشيباني" ، و"ابن سلام" ، و"ابن الأعرابي"
- ومن الاشتغال بالأدب والتأليف فيه : فقد اشتهر في هذا العصر "ابن قتيبة" ، و"المبرد" و"الجاحظ" وغيرهم
- وأما الشعراء فقد كانوا كثرة يصعب إحصاؤهم ، وأشهرهم "أبو العتاهية" . و"بشار بن برد" ، و"أبو تمام" . و"أبو نواس" ، و"البحتري" ، و"ابن الرومي" ، و"ابن المعتز" و"مسلم بن الوليد" . وكثيرون غيرهم
- وفي مجال الشر : اشتهر في هذا العصر "الجاحظ" . و"ابن المقفع" .
- وفي مجال الفلسفة والطب والعلوم : اشتهر "الكندي" . و"الفارابي".

وكان لهؤلاء دور كبير في إثراء المعرفة الإنسانية بما مدّوا الأدب بوجه خاص [1].

ولقد كان العصر العباسي الأول بحق بداية العصر الذهبي للعلوم والفنون، فقد بلغ فيه المسلمون من العمران والسلطان ما لم يبلغوه من قبل ، ولا من بعد أثمرت فيه المعارف الإسلامية ، وازدهرت الآداب العربية ، ونضج العقل العربي فوجد سبيلاً للبحث ، ومجالاً للتفكير بما تيسر له من سعة الفكر وعمق الثقافة ، وكان لهذه النهضة بواعث عدة ، نذكر منها :

١ – جمع وتدوين التراث العربي – شعره ، ونثره ، وتاريخه ، ومعارفه المختلفة – حتى أصبح مادة ثقافية ميسورة للناس يقرءونها ويحفظونها ، ويديرون الحوار حولها في دراسة نقدية ، تبين عناصر الجمال والقبح فيها .

٢ – قننت قواعد اللغة في هذا العصر ، بل في أوائله ممثلة في كتاب سيبويه ، وآراء سابقيه ومعاصريه ، كما استنبطت موازين الشعر وقوافيه .

٣ – جمعت اللغة وفسرت مفرداتها في معاجم خاصة ، كـ "العين" كما فسرت مفردات الشعر الغريبة في "كتاب المعاني" .

٤ – دونت معارف الجاهليين والإسلاميين الجغرافية ، والفلكية ، والطبية ، والتاريخية والحكايات والأساطير الشعبية ، والعادات القديمة في كتب اختص بعضها بجانب منها ككتابي "الأنواء ، والميسر والقداح" لابن قتيبة ، وتوزعت بعضها في كتب غير متخصصة ، ككتاب "الحيوان" للجاحظ.

٥ – استنبطت الأحكام الشرعية من مصادرها بعد الصراع الفكري الطويل عليها وفُسّر القرآن الكريم ، ودُوّن الحديث الشريف [2].

وفي علماء البصرة والكوفة من اللغويين ورواة الشعر يقول الدكتور شوقي ضيف : " تعاقبت في هذا العصر ثلاثة أجيال ، ورأس الجيل الأول في البصرة "أبو عمرو بن العلاء"

---

١ ـ محاضرات في تاريخ الأدب العباسي : د / علي جاد الحق ص ٢ .
٢ ـ المرجع السابق ص٣ .

وهو أحد القراء السبعة المقدَّمين الذين أُخذت عنهم قراءات القرآن الكريم .

وأشهر الجيل التالي له "خلف الأحمر" ، و"الأصمعي" ، وكان ثقة ، ومجموعته الشعرية الملقبة بـ "الأصمعيات" بعيدة الشهرة ، ورويت عنه دواوين كثيرة ، أشهرها مجموعة الدواوين الستة : دواوين "امرئ القيس" ، و"النابغة" ، و"زهير" ، و"طرفة" ، و"عنترة" و"علقمة بن عبيدة" .

وأهم أفراد الجيل الثالث من لغويّي البصرة "محمد بن سلام الجمحي" صاحب "طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين" ، وهو كتاب نفيس ، إذ يصور عمل المدرسة البصرية في توثيق الشعر القديم ، ووضع شعرائه في طبقات وفصائل حسب جودتهم الفنية .

ورأس الجيل الأول من لغويّي الكوفة "حماد الراوية" ، وكان عالماً بالشعر والعرب وكان "المفضل الضبي" ثقة صدقاً ، وحجة في الغريب ، ومجموعته الشعرية الملقبة بـ "المفضليات" أنفس مجموعات الشعر القديم .

وأشهر أفراد الجيل الثاني في الكوفة "أبو عمرو الشيباني" ، ويقال : إنه كتب أشعار ستين وثمانين قبيلة . ولا يقل عنه شهرة معاصره "ابن الأعرابي" ، وقد رويت عنه دواوين كثيرة

ومن أفراد الجيل الثالث "أبو عبيدة القاسم بن سلام" ، ويقال : إن الناس لم يكتبوا في الدنيا أصح من كتبه . وله مصنفات كثيرة من أشهرها "غريب الحديث"[1].

الثقافات الوافدة وحركة الترجمة

ذكر الدكتور/ شوقي ضيف – أن من أسباب ازدهار الحركتين : العلمية والأدبية – الاتصال الخصب المثمر بين الثقافة العربية الخالصة ، وبين ثقافات الأمم المستعربة وما فيها من معارف وعلوم ، وكان هذا الاتصال يأخذ منذ عصر "بني أمية" طريقين :

الأول : طريق المثاقفة مع المستعربين .

---

١ - تاريخ الأدب العباسي – العصر العباسي الأول : د / شوقي ضيف ص١١٩ : ١٢٠ .

الثاني : طريق النقل والترجمة .

وقد ظل الطريق الثاني ضيقاً زمن الأمويين ؛ إذ لا يعدوا ما يُذكر من أنه ترجمت "لخالد بن يزيد بن معاوية" كتب في الصنعة ، والطب ، والنجوم.

أما في هذا العصر فقد كانت ترجمة المصنفات اليونانية من لغتها الأصلية التي كان كثير منهم يحذقها ، ومن لغتهم السريانية إلى اللغة العربية .

وكان كثير من المصنفات اليونانية قد ترجم إلى الفارسية ، فأدلى الفرس بدلوهم لا في نقل ثقافتهم فحسب ، بل أيضاً في نقل بعض الآثار اليونانية على نحو ما هو معروف من نقل "ابن المقفع" لمنطق "أرسطو" .

وقد نقل "كليلة ودمنة" الهندي الأصل إلى اللغة العربية ، وفي ذلك إشارة إلى ما كان في الفارسية من ثقافة هندية أخذت تدخل إلى العربية بواسطة نقلهم.

ونرى الخلفاء العباسيين منذ فاتحة العصر يعنون بهذا النقل عناية شديدة ، وينفقون عليه الأموال الطائلة ، وكأنهم لا يريدون به أن يقف عند حد أو عند غاية ، ويعد الخليفة "أبو جعفر المنصور" من أوائل الخلفاء العباسيين المهتمين بحركة الترجمة .

ولقد نشطت الترجمة نشاطاً ملحوظاً في عصر "الرشيد" ووزرائه البرامكة.

وكان مما أزكى جذوتها حينئذ إنشاء دار الحكمة ، وتوظيف طائفة كبيرة من المترجمين بها ، وجلب الكتب إليها من بلاد الروم .

وللبرامكة فضل لا ينكر في حركة الترجمة ، فقد شجعوا بكل ما استطاعوا على نقل الذخائر النفيسة إلى العربية من الرومية ، واليونانية ، والفارسية ، والهندية وتبلغ هذه الموجة الحادة للترجمة أبعد غاياتها في عصر "المأمون" ؛ إذ تحول بخزانة الحكمة إلى ما يشبه معهداً علمياً كبيراً ، كما الحق بها مرصده المشهور [1].

وعن اتصال الثقافة العربية بالثقافة اليونانية يقول الدكتور / طه حسين : "لما جاءت

---

١ - تاريخ الأدب العربي – العصر العباسي الأول ص١٠٩ وما بعدها بتصرف – د/ شوقي ضيف.

النهضة العلمية في العصر العباسي ، وكان كثير من كتب اليونان قد تُرجم إلى اللغة السريانية أحد "الساطرة" و"اليعاقبة" يترجمون هذه الكتب اليونانية الأصل من السريانية إلى العربية .

فنقل إلى العربية أهم مؤلفات "أرسطو" في الفلسفة وغيرها ، وبعض مؤلفات "أفلاطون" في الفلسفة ، وأهم كتب "جالينوس" في الطب ، فتسربت هذه العلوم .

وكان لترجمة المنطق اليوناني أثر واضح في العلوم المختلفة ، كما كان للفلسفة اليونانية والطب والرياضة أثر كبير في عقول العلماء في ذلك العصر[1].

والذي نحب أن نؤكد عليه هنا : أن العرب لم يتأثروا كثيراً بالأدب اليوناني كما تأثروا بالفلسفة والطب والرياضة . فلم ينقلوا الروايات اليونانية ، ولعل السبب في ذلك :

أن الأدب اليوناني كان مملوءاً بأسماء الآلهة اليونانية فلم يستسيغوها ، ولأن هناك فرقاً واضحاً بين الفلسفة والعلم ، وبين الفن والأدب : فالفلسفة والعلم يرجعان إلى العقل والعقل عالمي يشترك الناس كلهم في قضاياه ونتائجه ، وأما الفن والأدب فمرجعها إلى الذوق ، والذوق يختلف بين الشعوب ؛ لذلك قد استساغوا الفلسفة اليونانية والعلم اليوناني في سهولة ، ولم يستسيغوا الفنون والآداب اليونانية ، فلم ينقلوها ولم يعنوا بها العناية التامة[2].

آثار الفرس في الأدب العربي :

أفادت الترجمة الفارسية إلى العربية الأدب العربي ، وأمدته بمعان قيمة يرجع معظمها إلى موضوعين :

الأول : الأخلاق والآداب والسياسة ، وما يتصل بها ، وقد ترجموا في هذا الباب طائفة صالحة ، تداولتها الكتب العربية وشاعت في الأدب العربي ، مثل كتاب "كليلة ودمنة" ، وهو كتاب هندي الأصل ، ولكن الفرس زادوا فيه ، وصنعوا صبغة فارسية وكتب أخرى

---

١ - التوجيه الأدبي ص٢٠٦ - ٢٠٧ : د/ "طه حسين" .
٢ - التوجيه الأدبي ص٢٠٧ : د/ "طه حسين" .

وقد أمدت هذه الترجمة الأدب العربي بثروة من الحِكم والمواعظ ، والسنن الرشيدة ظهرت في كثير من الكتب التي أُلّفت باللغة العربية ، مثل "الأدب الكبير" ، و"الأدب الصغير" لابن المقفع .

والثاني : الذي أجدت ترجمته على الأدب العربي التاريخ والقصص والأساطير ، فقد ترجم كتاب "خدامى نامه" أو "سير الملوك" ، وكتاب "التاج في سيرة "أنوشروان" ترجمها "عبد الله بن المقفع ، وغير ذلك من كتب التواريخ والسير .

وكان للفرس تأثير آخر في الأدب ، بما كتبوا فيه ، فأودعوه معارفهم ونتائج قراءتهم فلما دخل الفرس في الإسلام وخالطوا العرب ، واتخذوا العربية لساناً للعلم والأدب – نبغ منهم مؤلفون في كل من العلوم العربية والإسلامية"[1].

آثار الهند في الأدب العربي :

دخلت المعارف الهندية إلى الأدب العربي عن طريقين :

الأول : اتصال الأمويين بالآداب الفارسية ، وكانت "إيران" منذ الأزمان القديمة ذات صلة بالهند ، بالاشتراك في الحضارة الآرية القديمة ، وبالمجاورة.

الثاني : الاتصال المباشر بين العرب والهند بتزوج العرب إلى الهند ، وتزوج بعض الهنود إلى البلاد العربية ، وبالنقل من اللغة الهندية إلى العربية..

وقد ذاعت بعض المذاهب الهندية في العالم الإسلامي حتى دخلت في الأدب فمذهب التناسخ مذهب هندي المنشأ فيما يظن . وفي هذا المجال نذكر كتاب "كليلة ودمنة" وقصصاً هندية ترجمت إلى العربية إبان ازدهار الحضارة الإسلامية [2].

وخلاصة القول : إن المسلمين نقلوا إلى لغتهم معظم ما كان معروفاً من العلم والفلسفة ، والطب والنجوم ، والرياضة والأدب عند الأمم المتمدينة ، وكان أكثر نقلهم

---

١ - المرجع السابق ص٢٠٩ وما بعدها .
٢ - المرجع السابق ص٢١٧ .

عن اليونانية والفارسية والهندية ، وقد مرت حركة الترجمة من الثقافات الأجنبية إلى العربية بمرحلتين أساسيتين :

المرحلة الأولى : من عصر الخليفة "أبي جعفر المنصور" حتى عصر "الرشيد" ، فقد كان "المنصور" حريصاً على إذاعة العلم بين الناس ، فأمر بترجمة الطب والنجوم ؛ لأنه كان يشكو المرض ويلتمس العلاج ، فإذا انتهى إليه نبأ كتاب أعجمي في الطب فتح خزائنه لمن يترجم له ورفع إليه مكافأة ، وكان - كما ذكروا - يعتقد في النجوم ومطالعها على أنها سعود أو نحوس ، وكان له الفضل في تأسيس معهد الطب ، وعهد بإدارته والقيام عليه إلى طبيب أعجمي .

المرحلة الثانية : وفي عصر "الرشيد" ، وهو عصر الأمن والرخاء نشطت الترجمة واتسع نطاقها ، فقد أوفد رسله إلى جمع الكتب القديمة ، كما ترجموا له كتباً في الطب والنجوم والفلسفة ، إلى جانب ما ترجموا له من المنطق والطبيعة ، وقد كان ورواؤه "البرامكة" على غرار من إقبال على العلم ، وحرص على بعث تراثهم الفارسي ، ذلك التراث الذي تربطهم به ذكريات عزيزة.

ولما ولي "المأمون" الخلافة كان غرس الترجمة قد استقام عوده ، وآتى أكله ضعفين فتلاقت الأفكار في ظلاله ، وتكاثفت الثقافات ، واجتمع إلى جمال اللغة العربية روعة إخوتها من اللغات الأخرى حينذاك ، وتوج "المأمون" تلك النهضة الفكرية بترجمة كل ما يعثر عليه من تراث الأمم الأخرى[1].

تطور البيئة الأدبية في هذا العصر :

عندما آلت الخلافة إلى "بني العباس" تطورت البيئة العربية ، فتطورت تبعاً لذلك البيئة الأدبية . فلا نكاد نتقدم ربع قرن في المائة الثانية الهجرية حتى يطل الموالي ، وقد أثرت فيهم علاقات جديدة ، وأسباب حضارية مختلفة .

---

١ - دراسات في تاريخ الأدب العربي في عصره الذهبي ص٣٠ وما بعدها .

وكان لا بد أن يختلف الأمر ، ويحيد القصد عن مذهب الأوائل ، ويشكل القصيد من ثم مذهباً آخر .. ولقد ساعد في الابتعاد عن روح القديم ما رأينا من تطور الحياة الاجتماعية قبل ، وما صاحب ذلك من وقوف الناس على مذاهب جديدة في الفكر ، وفي العيش فقد ابتعد الأدب شيئاً عن البادية بعد أن بهتت صورتها ، واختلفت معالمها ، وخرب منها ما كان عماراً [1].

ولا يعني هذا أن السليقة العربية قد انتقضت في نفوس العباسيين ، أو حتى لدى الشعراء الذين مانوا يحسنون اللغة الفارسية ، كلا ، فقد كان الشعراء إلى جانب إجادتهم للغة الفارسية كانوا حاذقين بأساليب اللغة العربية ، بارعين فيها ، من أمثال "أبي نواس" الذي يقول فيه "الجاحظ" : "ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من "أبي نواس" ، ولا أفصح لهجة مع حلاوة ومجانبة لاستكراه".

و"بشار" الذي ذكر الرواة أنه أنشد "خلفاً الأحمر" قصيدته في "مسلم بن قتيبة" :

بكرا صاحبي قبل التهجير إن ذاك النجاح في التبكير

نلاحظ فيها إكثاره من الغريب ، وسأله عن سبب ذلك ، فقال : "بلغني أن مسلماً يشهى بالغريب ، فأحببت أن أرد عليه ما لا يعرفه" ، وقال له "خلف" : "لو قلت مكان "إن ذاك النجاح في التبكير" : "بكرا فالنجاح في التبكير" كان أحسن". فأجابه "بشار" : "إني بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت : "إن ذاك النجاح في التبكير" كما يقول الأعراب البدويون ولو قلت : "بكرا فالنجاح" كان هذا من كلام المولدين"[2].

إلا أن التحضر قد دفع أدباء العصر العباسي الأول إلى استحداث أسلوب مولد جديد وهو أسلوب كان يعتمد على الألفاظ الواسعة بين لغة البدو الذاخرة بالكلمات الوحشية ولغة العامة الذاخرة بالكلمات المبتذلة ، أسلوب وسط بين الغرابة والابتذال ..و"بشار" في طليعة من أرسوا هذا الأسلوب المولد الجديد.

---

١ ـ الحياة الأدبية في البصرة حتى نهاية القرن الثاني الهجري ص٣٥٦ وما بعدها : د/ أحمد كمال زكي

٢ ـ تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول ص١٤٣ وما بعدها : د/ شوقي ضيف

ويقول الدكتور/ عبد الرحمن عثمان في تطور البيئة العربية والأدبية في العصر العباسي الأول : "لما آلت الخلافة إلى العباسيين ، وتغير الدم العربي في الربع الأخير من القرن الثاني تأثر الشعر العربي في طريقته ، فنحى منحى الرقة ، ونزل عن أسلوبه القديم ونهجه الذي كان يصدر عن ذوق عربي خالص ، فوصف العرب وهم خارج جزيرتهم ببيئتهم الجديدة .. وبقيام الدولة العباسية انتقلت الزعامة الأدبية من الحجاز ودمشق إلى عاصمتهم "بغداد" ، فقصدها الأدباء من كل فج ، وهوت إليها أفئدة الفنانين من شتى الآفاق ، لأنها قلب المملكة الإسلامية الخافق بالشعر والعامر بحب الفنون ، ولأن في "بغداد" علية القوم من مشايخ بني هاشم ، وأجاويد بني برمك ، وديدن الشعراء أن يختبهم المنح ، وأن تستهويهم حياة الترف والنعيم"[1].

وعلى الرغم مما أحاط بالأدباء من مظاهر الحضارة ، فإنهم – كما سبق – كانوا قريبي عهد بالبداوة . ويبرعون في شعرهم عن شرق بدوي عريق تتجلى فيه "المواهب الفطرية" .

وقد اجتمعت للأدب في هذا العصر عوامل أدت إلى رقيه ، وازدهاره ربما لم تجتمع له في عصر آخر كما سيأتي

ازدهار الأدب في العصر العباسي الأول :

قلنا إنه اجتمعت للأدب في هذا العصر عوامل كثيرة دفعت به إلى الرقي والازدهار وهذه العوامل ترجع إلى التغييرات التي طرأت على الحياة العامة بكل صورها في هذا العصر ويمكن أن نوجز هذه العوامل فيما يأتي : -

١ - فقد كانت للخلفاء والأمراء مجالس تحولت إلى ما يشبه ندوات علمية وأدبية يتناظر فيها العلماء ، وتطرح فيها موضوعات مختلفة للمناقشة والحوار.

٢ – ومن العوامل التي دفعت إلى ازدهار الحركتين العلمية والأدبية لهذا العصر الاتصال الحميم بين الثقافة العربية الخالصة ، وبين ثقافات الألفاظ المغلوبة المستعربة

---

١ - دراسات في تاريخ الأدب العربي " الأدب في عصره الذهبي" ص: ٣

وما طوي فيها من معارف وعلوم .

٣ – كذلك كان للأسواق الأدبية دور كبير في إثراء الحركتين العلمية والأدبية ، ومن أشهر هذه الأسواق ، سوق "المربد" ، وسوق "الكناسة" بالعراق ، وقد راجت فيها حركة شعرية وأدبية ونقدية .

٤ – كذلك كان للرقى الحضاري الذي عم أرجاء الدولة أثره في خيال الأدباء ، وصداه في شعرهم ونثرهم ، فقد كان لتطور الحياة ، وتغيرها كبير الأثر في تطور الشعر وتنوع فنونه ، فكثرة المرثيات ، وتعدد أنواعها ، واختلاف أنماط التفكير ، وتباين العادات والتقاليد والأخلاق – كل ذلك استدعى من الأدب نتاجاً جديداً حتى يتلاءم الأدب مع ما استحدثته البيئة والمجتمع .

٥ – كذلك كان لازدهار الحركة الثقافية في هذا العصر عن طريق التأليف والترجمة والمناظرة دوراً في ازدهار الحركة الأدبية ، فمن الحقائق الثابتة أن ثقافة الأديب تلعب دوراً كبيراً في أدبه ، حيث تنمى مداركه ، وتوسع من أُفقه وتمده بالأغراض والأفكار ، وتضيف إليه ألواناً من الأخيلة ، وكماً هائلاً من مفردات اللغة وتراكيبها .

بيئات الأدب الجديدة في العصر العباسي الأول : –

انتقلت عاصمة الخلافة إلى "بغداد" عندما آلت الخلافة إلى العباسيين ، فقد رأى العباسيون أن يجعلوا عاصمة دولتهم في بلاد أنصارهم الفرس ، فاتخذوا مدينة "بغداد" مقراً للخلافة ، وأحاطوا سلطانهم بمظاهر الترف التي كانت للأكاسرة ، من قصور شامخة ونظام مهيب يليق بالجالس على العرش ، وأعانهم على ذلك كثرة الموارد في الدولة .

وبلاد فارس تمتاز عن "جزيرة العرب" بما حبتها الطبيعة من جمال وخصب فالبساتين النضرة هنا وهناك ، والأنهار والجداول تهب الحياة للسهول الفسيحة ، فتثبت الثمرات في وفرة وكرم ، والأمطار تكلل رؤوس الجبال تموزق الأشجار ، وموئق النبات وللفرس عادات من الترف نشئوا عليها منذ نعومة أظفارهم ، ولهم تقاليد ورثوها من أسلافهم رأى العرب هذا الإقليم الجديد فبهرهم جماله ، وسحرتهم فتنته .

كما هجر كثير من عرب "الكوفة" و"البصرة" و"الشام" و"قلب الجزيرة العربية" عاصمة الخلافة العباسية ، وأقاموا مع العجم مجتمعاً جديداً . له خصائصه الجديدة ، وطابعه المستحدث .

وبالإضافة إلى بيئة "بغداد" العاصمة العباسية وجدت في "العراق" بيئات ازدهرت فيها الحياة الأدبية . وأهم هذه البيئات : البصرة ، والكوفة .

أما "البصرة" : فإن النثر كما يقول الدكتور/ أحمد كمال زكى : لم يعد مقصوراً على الروايات الشفهية ، ولا على المواعظ الدينية ، وإنما تحول إلى دفاتر ، وإلى كتب لاسيما بعد أن يؤدى "ابن المقفع" دوره ، فاكتسب النثر صفة علمية ، ولم يعد وقفاً على عرض الفصاحة وقوة الأسلوب.

وهو مع ذلك يمثل ازدهاراً مهّد لحياة نصية مرّ بها النثر بعد ذلك في نهاية القرن الثاني والقرن الثالث على يد "الجاحظ" . و"أبى الحسن المدائنى" الذي يكثر "الجاحظ" من الرواية عنه . و"سهل بن هارون" أيضاً.

أما الشعر فلقد خرج عن السياسة والهجاء والمديح – كموضوعات أساسية – إلى التعبير عن حياة العصر . ووجد المجددون أن واحداً كـ "زيد بن مفرغ" قد فتح لهم الباب لاستعمال ألفاظ العامة . فخرجوا إليهم ليمسح على قصيدهم روح حفيف رشيق . وهنا نرى شعراء لا يقلون بسلة رحم ، ولا ولاء نرى "بشاراً" ، و"أبا نواس" ، والحسين الخليع و"ابن أبى عيينة"

وعلى الرغم من أن المديح كان وظيفة الشاعر الأساسية ، وأن النقاد كانوا يشترطون اشتراطات تعتبر جامدة رجعية في القصيدة العربية ، فإن الشعراء قد استطاعوا أن يفلتوا من أسر الجمود والرجعية . حين صدروا للعامة بشعر يخالف الشعر الذي يردون به على الخاصة ومن ثم مثلوا أرقى عنصر من عنصور الشعر البصري .

ويقول الدكتور/ شوقى ضيف – التوازن بين الثقافة العربية والثقافة الوافدة فقد أصبح العرب ورثة الهند ، والفرس ، واليونان ، والأمم السابقة ، والأمم المصرية القديمة

وبحيث كوّنوا من هذا الإرث حضارتهم العربية .

وقد ثبت العباسيون هذه الحضارة على قواعد راسخة من التوازن الوثيق بين الثقافة العربية الموروثة ، وثقافتهم الحديثة ، ومن أهم البيئات التي فرضت عليها قواعد التوازن بين الماضي والحاضر سلطانها بيئة الشعر والشعراء ،فقد مضت توازن بينهما بالقسطاس بحيث لا يبغى أحد الطرفين على صاحبه.

وبذلك احتفظ الشاعر العباسي في "البصرة ، والكوفة ، وبغداد" لأمته بمقوماتها اللغوية ، والفنية الموروثة . ولم يفرض هذه المقومات للغناء ، بل أتاح لها كل ما يمكن من أسباب الحياة والازدهار ، إنشاء نماها ، ومد طاقتها بما أوتى من ثقافة حديثة .

انتقال الغناء من الشام إلي العراق :-

في هذا العصر العباسي تحول الغناء ، وما يستتبعه من رقص وموسيقى من الشام إلى العراق مع الملك العربي والدولة العربية ، وكان لذلك أسباب مختلفة ، يرجع بعضها إلى اتصال أهل العراق بالبلاط الأموي .. ويرجع بعضها إلى أسباب فارسية . فإن المعروف أن الفرس مشغولون بالملاهي والطرب ..

وهنا نلاحظ اتصال الغناء بالشعر العربي في العراق اتصالاً وثيقاً ، وكان تأثيره بعيداً في الشعر والشعراء . فقد كان المغنون والمغنيات يغنون في الشعر الحديث أمثال "بشار" و"مطيع بن إياس" وأضرابهما .

ويذكر الدكتور/ "طه حسين" – اتساع موضوعات النثر بعد قيام الدولة العباسية في الشام والعراق : عندما قامت الدولة العباسية امتد سلطان النثر شيئاً فشيئاً ، واتسعت موضوعاته إلى أكثر مما كانت عليه في آخر العصر الأموي ، وكان من أسباب هذا : اشتداد الاتصال بين العرب الفرس وغيرهم من الموالي في الشام ، والجزيرة ، والعراق . ومن أهم هذه الأسباب تسلط الفرس والموالي ، ووصول الأمة العربية الإسلامي العربي طور التسوية

بين العرب وغيرهم من الموالي في الحقوق[1]

وقد تغيرت طبيعة النثر في هذا العصر – كما يقول الدكتور/ "طه حسين" ليس عربياً إذاً أن تتغير طبيعة النثر في آخر القرن الثاني ، وطوال القرن الثالث، وأن تكثر موضوعاته وأن يزاحم الشعر حتى يسبقه ، فقد كان النثر لا يكاد يتجاوز النثر السياسي والتاريخي .

أما في آخر القرن الثاني ، وطوال القرن الثالث فقد أصبح النثر فناً تؤدى فيه جميع العلوم الشائعة على كثرتها واختلافها ، وأصبح بعد هذا فن ترف ولهو يقوم مقام الشعر في إرضاء الشعور[2].

ويشير الأستاذ / أحمد حسن الزيات إلى تطور حركة الأدب بعد أن انتقلت الخلافة من الأمويين إلى العباسيين ، كانت دمشق في عهد الأمويين حاضرة الخلافة ، وقاعدة الملك ومقر الجند ، ومعقل الأدب . فلما أزال الله العباسيين من الأمويين ، والفرس من العرب وبغداد من دمشق فترت حركة الأدب في الشام ، فما كان يصدر عنه ولا إليها ، حتى تملك "بنو حمدان" في القرن الرابع على "حلب".

والطريقة الغالبة على أهل الشام في الشعر هي طريقة "البحتري" في إيثار اللفظ الجزل والأسلوب الفصيح السهل ، دون تعمق في المعنى .

وكفى الشام فخراً أن أعادت إلى العرب في "أبي تمام" و"البحتري" وغيرهما سبق الشعر بعد أن علتهم عليه متعربوا الفرس ، وأبناء الموالي في صدر هذا العصر[3].

ومن شعراء "مصر" في القرن التالي "سعيد بن مفيد" الذي يبدو أنه كان يعيش أيام "المهدي" ، وأيام "الرشيد" ، إذ يذكر له "الكندي" أبياتاً في مقتل "موسى بن مصعب" والي "مصر" أيام "المهدي" الذي قتله أهل الحرف ، ومنها :

---

١ - النثر ومذاهبه في الشعر العربي -/ شوقي ضيف – ط دار المعارف ص٥٩

٢ - المرجع السابق

٣ - تاريخ الأدب العربي احمد حسن الزيات ص٣٢٨ ، ٣٢٩

ألم ترهم ألوت بموسى سيوفهم وكانت سيوف لا تدين لمترفي

فما برحت فيه تعود وتبتدى إلى أن تروى من حمام مدنف

أما عن بقية البيئات الأدبية في "الحجاز" و"الشام" "وحضرموت" فيمكننا أن نقول مطمئنين : إن الحركة الأدبية فيها قد انتقلت إلى العراق شيئاً فشيئاً منذ بداية القرن الثاني حتى استقرت فيه تماماً .

والحقيقة أن "العراق" كان منذ القرن الأول أكثر البلاد الإسلامية نشاطاً فكرياً ، وكان أحقها بأن يكون مركزاً للحركة العلمية والأدبية على السواء ، لولا أن الخلافة الأموية اجتذبت العلماء والشعراء حولها في دمشق ، فما زالت تلك الخلافة عاد "للعراق" مركزه الذي كان جديراً به لعدة أسباب ، يجملها "أحمد أمين" فيما يلي : -

أولاً : أسس العراق على مدنيات قديمة ، لها علم مأثور ، فكان "السريانيون" منتشرين قبل الفتح ، ولهم مدارس يدرسون فيها الآداب اليونانية.

ثانياً : كثرة الحروب ، والفتن في العراق .

ثالثاً : كان للقبائل العربية النازلة بالبصرة رؤساء ، وكان هؤلاء الرؤساء أشبه شئ برؤساء القبائل في الجاهلية في السيادة على قبائلهم ، ووقوف الشعراء ببابهم ، وهؤلاء الرؤساء كانوا مصدراً لحياة أدبية قوية .

هذه الأسباب إذن – إلى جانب انتقال مركز الخلافة إلى "العراق" – هي التي جعلت له هذه المكانة في الحياة الأدبية في القرن الثاني ، وسلطت عليه الأضواء من كل مكان وكان إنشاء "بغداد" سبباً في جلب شعراء البيئات الإسلامية الأخرى إلى "العراق".

ويقول الدكتور/ "شوقي ضيف" في حالة الشعر في مصر في العصر العباسي : "نجد مصر تأخذ بأسباب النهضة الفنية التي ستقبل عليها في العصر الفاطمي ، ومع ذلك فلا يزال بينها وبين "بغداد" بون بعيد[1].

---

١ ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي : د/ شوقي ضيف ص٣٦٤ .

ازدهار النثر وأسبابه :

لقد نهيأت أسباب أدت إلى ازدهار النثر في هذا العصر وتطوره، ومنها:

١ – الاستفادة من الثقافات والأفكار الأجنبية التي كان لها تأثيرها في الحضارة العربية وقد تم ذلك عن طريقين :

الأول : النقل والترجمة ، وهو طريق عنى به الخلفاء العباسيون ووزراؤهم ، وخاصة "البرامكة" إلى أبعد حد ممكن . كما عنى به أفراد مختلفون مثل "ابن المقفع" .

وطريق ثان : لعله كان أوسع مجرى . هو تعريب شعوب الشرق الأوسط ، وانتقالهم إلى العربية بكل ما ورثوه وثقفوه من فنون المعرفة ، ولم ينتقلوا بمعرفهم فقط بل انتقلوا بعاداتهم وتقاليدهم . مما هيأ لظهور المدنية العربية في تلك الأقاليم التي دانت بالإسلام ، وهي مدنية قوامها مزيج من التعاليم الإسلامية الروحية والخلقية ، ومن الأدب العربي بشعره ونثره ، ومن صور الحياة العقلية والمادية في المحيط العربي الجديد[1]

٢ – ويذكر الدكتور / "طه حسين" الأسباب التي قوى بها سلطان النثر وعظم أمره وسهل الاتصال بين العرب والأمم الأخرى ، والمساواة بين العرب وغيرهم من الموالي في الحقوق والحرية التي يتمتع بها غير العرب ، ووصولهم إلى أعلى المناصب وقد شجع كل ذلك على الترجمة والعناية بالثقافة الأجنبية.

عندما قامت الدولة العباسية امتد سلطان النثر شيئاً فشيئاً ، واتسعت موضوعاته وكان من أسباب هذا الاتصال بين العرب والفرس وغيرهم

ومن أهم الأسباب تسلط الفرس والموالي ، ووصول الأمة العربية الإسلامية إلى طور التسوية بين العرب وغيرهم

وفي العصر العباسي عندما تسلط الأعاجم وتحققت المساواة بينهم وبين العرب

---

١ – فجر الأدب العربي (العصر العباسي الأول) د/ شوقي ضيف ص ٤١ : .

وأصبح سلطانهم قوياً ، أحسّ هؤلاء الأجانب في أنفسهم قوة ساعدتهم على أن يمكنوا لثقافاتهم الأجنبية ، كما مكنوا لأنفسهم من المساواة بالعرب الخُلَّص ، فظهرت فكرة الإكثار من الترجمة ، والعناية بالثقافة اليونانية والفارسية ، ورأينا الوزراء ومن يتصل بهم ينقلون إلى العربية ما كان عند "الفرس" و"اليونان" من علوم[1].

٣ – تعدد شعب النثر وفروعه : فقد أصبح فيه النثر العلمي ، والنثر الفلسفي ، وأصبح فيه النثر التاريخي على شاكلة ما كان عند الأمم القديمة ، وحتى النثر الأدبي الخالص أخذ يتأثر باللغات الأجنبية ، وخاصة اللغة الفارسية على ما هو معروف عن "ابن المقفع" وترجمته عن هذه القصص "كليلة ودمنة" ، ونقله لكثير من آداب الفرس الاجتماعية والأخلاقية ، ونظمهم في السياسة والحكم ، مما كان له أعمق الأثر في الرسائل الديوانية ، وفي نشوء اليوم باسم "المقالات"[2].

ويجمل الدكتور/ "شوقي ضيف" عوامل تطور وازدهار النثر، فيقول: "إن النثر تهيأت له أسباب كثيرة في هذا العصر ، ولكي ينمو ويزدهر فقد أخذ يمتد ليستوعب العلوم والفلسفة ، كما يستوعب مادة عقلية عميقة حتى في المجال الأدبي إذ أخذت تغزوه آداب الفرس السياسية والاجتماعية ، كما أخذت تغزوه الثقافات الأجنبية ، وكل ما اتصل بها من الفكر اليوناني .

وقد أينعت الفروع الجديدة في شجرتها الكبيرة ، وأخذت تتكون فيها أزهار ذاكية الشذى ، بفضل كبار الكُتّاب والمترجمين والمتكلّمين".

وفي عوامل تطور النثر يقول: "إن النثر تطور تطوراً خطيراً في العصر العباسي الأول فقد حملت أوانيه الثقافات الأجنبية المختلفة ، من يونانية وفارسية ، وهندية ، وسريانية حملاً لا يزال يروع الباحثين ، وكأنما كان في المتعة العربية طاقات مستكنة لكي تحمل في يسر هذه الثقافات ، ولا تتأتى عليها واشتهر كثيرون بالنهوض بهذا العمل ، وفي مقدمتهم "ابن

---

١ - من حديث الشعر والنثر : د/ طه حسين – دار المعارف ص٣٧ وما بعدها .
٢ - العصر العباسي الأول : د/ شوقي ضيف ص٤٤٢ .

المقفع"، ثم رعت الدولة الترجمة، وأنفقت عليها نفقات هائلة، بحيث كاد أن لا يبقى كتاب نفيس في الثقافات المذكورة إلا نقل إلى العربية، وبحيث يمكن أن نسمي العصر العباسي الأول "عصر النقل والترجمة".

مدارسه

مدرسة ابن المقفع:

- التعريف به:

"عبد الله بن المقفع" من أصل فارسي، ولد حوالي سنة ١٠٦هـ، ونشأ بالبصرة وفيها تلقى العلم والأدب، وكان ذكي القلب، فصيح المنطق، صليعاً في أدب العرب والفرس متدماً في بلاغة اللسان، والعلم والترجمة، واختراع المعاني، وابتداع السير.

من ترجماته ومؤلفاته: "كليلة ودمنة"، و"الأدب الكبير"، و"الأدب الصغير" وقتل سنة ١٤٢هـ[1].

مدرسته:

و"ابن المقفع" إمام الطبقة الأولى من الكتاب، وقد استخلص من الأسلوب الفارسي والعربي طريقة في الكتابة عرفت به وأخذت عنه. وهي: تنويع العبارة، وتقطيع الجملة والمراوحة بين الكلمات، وتوخي السهولة والعناية بالمعنى، والزهد في السجع.

وكان "ابن المقفع" بارعاً في البحث والتحليل، وفي سرد القصص وضرب الأمثال ثم إنه يأتي بالبحث وبالقصص والأمثال متداخلة في استطراد محكم، يبدأ قصة فإذا سار فيها شوطاً في بعض الأحيان، ويكون البحث والتحليل والحكم موزعة بين أقسام القصة الواحدة، وبين الأمثال المضروبة.

والألفاظ عند "ابن المقفع" فصيحة، إلاّ إذا اضطر إلى استعمال ألفاظ فنية، مثل شبه (التنس، احتلط)، مرية (شك ريب)، خافر (ناقض للعهد)، السباح (الأرض المهملة)

---

١ - تاريخ الأدب العربي: احمد حسن الزيات ص٢٥٣ وما بعدها، وتاريخ الأدب العربي: بروكلمن ٩٢/٣

والتركيب عنده صحيح سهل ، إلا أن جملة طويلة متعانقة مما يؤدى أحياناً إلى شئ من الغموض في التعبير.

و"ابن المقفع" بارع في التصرف بأحرف الجر الكثيرة، وبأسماء الموصول وأسلوبه خال من الصناعة إلا ما يقع له منها عفواً مرة بعد مرة ، وفي مواقف التهكم في الأكثر.

كان "ابن المقفع" كاتباً مترسلاً (موظفاً في الديوان أيام بنى أمية) ، ولكن شهرته تقوم على كتاب "كليلة ودمنة" ، وهو أشهر كتبه ، وأعظمها ، وأدلّها على أسلوبه ، وأجلّها في تاريخ الكتابة الأدبية ، وعليه تقوم شهرته الأدبية.

في كتاب "كليلة ودمنة" أربع مقدمات ، ثم خمسة عشر باباً تدور حول أسئلة يلقيها ملك من ملوك "الهند" بدعوته "دبشيم" على فيلسوف معاصر له يزعمون أن اسمه "بيدبا" وقد أجاب "بيدبا" على هذه الأسئلة بأجوبة مناسبة ، ثم ضرب على ما أجاب به أمثلة واستخرج من كل شئ مغزى صرح به تصريحاً أو تركه ملموحاً .

وكتاب "الأدب الصغير" : مجموع حكم يسوقها "ابن المقفع" مجردة من القصص والأمثال ، على خلاف أسلوب "كليلة ودمنة".

"الأدب الكبير" : مجموع حكم أكبر من "الأدب الصغير" . وفيه كلام مبسوط على الصلة بين الحكام والرعية أكثر مما في "الأدب الصغير" ، ثم فيه أمور تتعلق بالمخالفة بين الناس أنفسهم[1].

"عمرو بن مسعدة" :

هو "أبو الفضل عمرو بن مسعدة بن سعيد (سعد) بن صُول ، أصله تركي، قيل من بيت المُلك في "جرجان".

لما فتح "يزيد بن المهلب بن أبى صُفرة" "جرجان" . في خلافة "سليمان بن عبد الملك"

---

١ - تاريخ الأدب العربى – الأعصر العباسية : تأليف: عمر فروخ ص٥٢ وما بعدها .

- الأدب الكبير والأدب الصغير : يوسف خليفة – بيروت – مكتبة البيان .
- الأدب الصغير : احمد زكى – القاهرة ١٣٣٩هـ - القاهرة – دار المعارف .
- الأدب الموجز للولد الصغير – ترجمة وتحقيق: محمد عقرانى الخراسانى – القاهرة – بدون تاريخ.

(٩٦ – ٩٩هـ) أسلم "صول" ، ثم إن "مسعدة بن صول" أصبح مولى لـ "خالد بن عبد الله القسري" حينما كان "خالد" والياً على "العراق" كلّه ، وعلى "خراسان" و"الهند" (١٠٥ – ١٢٠هـ) ، فكان يكتب له "كاتباً عنده" ، ثم أصبح "مسعدة" كاتباً لـ "خالد بن برمك" ربما في أيام وزارته "للسفّاح" و"المنصور" ، ثم لـ "أبي أيوب الموريانى" وزير "أبي جعفر المنصور".

لعل "عمر بن مَسعدة" نشأ في "بغداد" ، وأخذ عن علمائها ، وقد برع في الترسل فأصبح يُوقع بين يدي "جعفر بن يحيى البرمكى" في أيام "الرشيد".

ولم يدخل "عمر بن مسعدة" إلى ديوان الرسائل حتى توفي "الفضل بن سهل" (٢٠٢ – ٨١٧هـ) ، فكتب "للمأمون" (في مَرْو) ، ثم جاء مع المأمون إلى "بغداد" (٢٠٤هـ) فأصبح رئيس "ديوان الرسائل" وديوان "الخاتم" . وتكسب من عمله مالاً جزيلاً قيل : ثمانون مليون درهم.

وكان "عمر بن مسعدة" مقصوداً ممدّحاً ، مرض يوماً فعاده "مروان بن أبى حفصة" وهنأه (وتعرض "مجاشع" أخو "عمرو بن مسعدة" "لحماد بن عجرد" بالهجاء ، وكان "مجاشع" صغيراً ، فتسبب "حماد" بـ "أم مجاشع" . فبعث "عمرو" بهدية إلى "حماد" ، واعتذر إليه ، واستكفّه ثم لام أخاه "مجاشعاً" .

ولما غزا "المأمون" بلاد الروم كان "عمرو بن مسعدة" معه ، فأدركته الوفاة في "أذنه" قرب "طرسول" في ربيع الآخر من سنة ٢١٧هـ في الأغلب (٨٣٢م).

كان "عمرو بن مسعدة" صاحب توقيع ورسائل وفصول موجزة . ولكن ليس له كتاب مؤلف في موضوع معين ، وهو فصيح الألفاظ ، سهل التراكيب ، حسن السبك ، كثير الإيجاز مع شئ من الغموض المقصود الذي تقتضيه عادة اللباقة السياسية ، وكذلك كان يعظم الشعر ، ووصف "الفضل ابن سهل" بلاغة "عمر بن مسعدة" فقال: "هو أبلغ الناس ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثله ، فإذا رامه بعد عنه" .

ومن كلامه ، كتب "عمر بن مسعدة" إلى "الحسن بن سهل" :

"أما بعد ، فإنك ممن إذا غرس سقا ، وإذا أسّس بنى ، ليستتم تشييد أسسه، ويجتنى

ثمار- غرسه ، وثناؤك عندى قد شارف الدروس ، وغرسك شن على اليبوس ، فتدارك بناء ما أسست وسقى ما غرست إن شاء الله".

ولـ "عمرو بن مسعدة" كلمات جوامع للحكم ، منها :

العبودية عبودية الإخاء لا عبودية الرق – الود أعطف من الرحم – عليكم بالإخوان فإنهم زينة في الرخاء وعُدة للبلاء [1]– ما تواصل اثنان فدام تواصلهما إلاّ لفضلهما أو فضل أحدهما – علامة الصديق إذا أراد القطيعة أن يؤخّر الجواب ، ولا يبتدئ بالكتاب – ظاهر العتاب خير من باطن الحقد – لا تتعرض لعدوّك في دولته ، فإنّها إذا زالت كنتك مئونته – نُصح الصّديق تأديب ونصح العدوّ تأليب.

وكتب "عمر بن مسعدة" إلى "المأمون" رسالة في شأن رجل كان المأمون قد وعده عِدَة : "إن رأى أمير المؤمنين أن يفكّ أسْر عبده من رِبْقة المُطل بقضاء حاجته ، أو يأذن له بالانصراف إلى بلده فَعَل إن شاء الله"[2].

الجاحظ

نشأته وحياته :

"أبو عثمان عمرو بن بحر" ، ولد بالبصرة . ونشأ بها . وقد اشتهر بلقبه الدال على نتوء حدقتيه وجحوظهما ، واختلف في السنة التي وُلد فيها . على حين اتّفق الرواة على أنه توفي سنة ٢٥٥هـ ، والمظنون أنه وُلد في العقد السادس من القرن الثاني للهجرة ، وكأنه عاش ما يقرب من مائة سنة ، ويروى عنه أنه قال في أواخر حياته يشكو من الفالج (الشلل) والنقرس (الروماتيزم) : "أنا في هذه العلل المتناقضة التي يتخوف من بعضها التلف وأعظمها ست وتسعون سنة .

ويذكر "بروكلمان" السنة التي وُلد فيها ، وأنه وُلد بالبصرة في أوائل سنة ١٥٠هـ

---

١ - تاريخ الأدب العربى : تأليف/ عمر فروخ ص٢١٦ وما بعدها .
٢ - معجم الأدباء : لياقوت الحموى ١٢٧/١٦ وما بعدها .
• وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ١١١/٢ وما بعدها .
• تاريخ بغداد ٣٠٢/١٢ ، ٣٠٣ .

وتوفي في شهر المحرم سنة ٢٥٥هـ[١]، وهو إنسان طموح قوى العزيمة ، دقيق الملاحظة مرهف الشعور ، مفرط الذكاء [٢].

وكان "أبو عثمان" دميم الخلقة ، جاحظ العينين ، ومن ذلك لقبه، حتى قيل : إن الخليفة المتوكل سمع بمنزلته من العلم فاستقدمه إليه ليؤدب ولده ، فلما رآه استبشع منظره وصرفه بعشرة آلاف درهم ، وكان فيه دُعابة واستخفاف بالعادات المرعبة والآداب الوضعية ولكنه كان لطيف الروح ، ذكى الفؤاد ، فكه المحاضرة [٣].

وكان يتندر على كل شئ حتى على نفسه وشكله ، ويروى عنه أنه قال: "ما أخجلنى إلا امرأة مرت بى إلى صانع فقالت له : اعمل مثل هذا ، فبقيت مبهوتاً. ثم سألت الصانع فقال : هذه المرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان فقلت: لا أدرى كيف أصوره ، فأتت بك لأصوره على صورتك".

وقد نشأ "الجاحظ" نشأة فقيرة متواضعة ، ومن أخباره أنه كان يبيع الخبز والسمك بسمك أحد أنهار البصرة ، وكان يشير ذلك إلى أن نشأته كانت فقيرة ، وأنه كان في حاجة إلى أن يكتسب معاشه . ويروى أن أمه صاقت بانهماكه في الدرس والقراءة ، فطلب منها يوماً طعاماً ، فجاءته بطبق ملئ بكراريس أودعتها البيت ، وقالت له : ليس عندي من طعام سوى هذه الكراريس ، تريد أن تنبهه إلى التكسب ، فذهب إلى البائع مغتماً .

ولقيه "يوسف بن عمران" أحد رفاقه الأثرياء في الدرس ، فسأله : "ما شأنك؟" فحدثه بحديث أمه ، فأخذه إلى منزله ، وأعطاه خمسين ديناراً ، فأخذها فرحاً ودخل السوق واشترى الدقيق ، وحمله الحمالون إلى داره ، وسألته أمه : من أين لك هذا؟ فقال لها : من الكراريس التي قدمتها إلىّ وكأن "ابن عمران" كان رمزاً مبكراً لما سيصبه من أموال وعطايا من الخلفاء والوزراء.

---

(١) تاريخ الأدب العربى : كارل بروكلمان ٣/١٠٦
(٢) الجاحظ "المحدث وتصوير المجتمع العباسى" د/ احمد محمود هدى ص٩٩
(٣) تاريخ الأدب العربى : احمد حسن الزيات ص٢٥٧

وكان "الجاحظ" يذهب إلى بعض الكتاتيب التي فيها تعليم القراءة وشيئاً من النحو والفقه والحساب، وحفظ القرآن الكريم، وبعض الأشعار، ولما شبَّ مضى إلى المساجد يستمع إلى محاضرات العلماء فيها، وكانوا يحاضرون في كل فن، وكانت أشبه بجامعات مفتوحة الأبواب لكل من أراد الدرس، وقد أخذ يلتهم كل ما يسمعه فيها من فقه وعلوم شرعية ومن نحو وعلوم لغة، ومن مناقشات ومحاورات بين المتعلمين من كل الفرق، وكان يختلف إلى المربد يأخذ عن فصحاء العرب اللغة وبعض ما ينشدونه من الأشعار، وكانت المربد سوقاً تجارية وأدبية كبيرة منذ العصر الأموي [1].

ولم يكن يكتفي بقراءة كتاب أو كتب في اليوم الواحد، إذ يذكر صاحب الفهرست أنه كان يكترى دكاكين الوراقين ويبيت فيها للقراءة والنظر.

وقد أحاط "الجاحظ" على وجه العموم بجميع معارف عصره، وبرز في دراستها وتفوق على أقرانه في كل فن من فنونها، بدليل أنه كتب في معظم الموضوعات التي شاع فيه التأليف في عصره إن لم يكن فيها كلها، وكتابا: "الحيوان" و"البيان والتبيين" يشهدان له باتساع العلم، وغزارة الاطلاع، وتشعب الثقافة، والقدرة على التدفق والإفاضة في جميع معارف العصر؛ حيث كان ينتقل فيها من فن إلى فن في يسر وسهولة.

وكان من أهم ما شغف به مذهب المعتزلة، ولزم أساتذته في عصره، بادئاً بأبي الهذيل العلاف، وكلما اشتهر معتزلي لزم حلقته.

وكان من أهم من لزمهم "النظام"، وكان لا يبارى في المناظرة وإفحام الخصوم بالبراهين والأدلة القاطعة.

وقد هداهم طول تفكيره في آراء أستاذه (النظام) الاعتزالية وغيره من "المعتزلة" إلى أن يعتنق مجموعة من الآراء كونت له فرقة سميت "بالجاحظية" نسبة إليه.

ولما شغل الخليفة "المأمون" بعقيدة الإمامة ومستحقيها من العباسيين أو الشيعة طلب من "الجاحظ" الكتابة في هذا الموضوع، وكتب "الجاحظ" فأعجب "المأمون" بما كتب إعجاباً

---

(١) العصر العباسي الثاني: د/ شوقي ضيف.

كبيراً ، وكان ذلك فاتحة عهد جديد "للجاحظ" ؛ لأنه أصبح كاتباً رسمياً للدولة.

ويقال : إن "المأمون" حاول أن يقلده ديوان الرسائل ، ولكنه لم يستطع العمل إلا ثلاثة أيام ، عاد بعدها إلى التأليف والكتابة الأدبية.

وكان "أبو عثمان" يحب العرب ، ويعتز بالعروبة ، وقد أثار في نفسه هذا الحب عقدة الكراهية للشعوبية ، والتصدي لهم ، ودحض مزاعمهم التي روَّجوا لها ، وعملوا على إلصاقها بالعرب. وقد تنوعت آثار "الجاحظ" الأدبية بين المناظرات ، والرسائل الإخوانية والرسائل الأدبية ، والنثر القصصي ، والنادرة. وقد نبغ في فن المناظرات إلى حد كبير ، ولعل تشيعه لآراء المعتزلة ، واعتقاده لها منحه وسائل النجاح في هذا اللون من النثر.

فقد اتخذوا المناظرات وسيلة فعّالة للدّفاع عن معتقداتهم ، والانتصار لها أمام مذاهب الجماعات الأخرى [1].

مؤلفاته :

كتب تربو على مائتي كتاب ، وهي كما قال الأستاذ "ابن العميد" : "تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً". ومنها : "البيان والتبيين" ، و"الحيوان" ، و"المحاسن والأضداد" ، و"البخلاء" و"ديوان رسائله" ، وكان يقال : أربعة لم يُلحقوا وله يُسبقوا : "أبو حنيفة" في فقهه و"الخليل" في أدبه ، و"الجاحظ" في تأليفه ، و"أبو تمام" في شعره.

نثره وشعره :

نقل "الجاحظ" الكتابة إلى طور جديد في الأسلوب والغرض ، ونهج للمترسلين والمنشئين طريقة في الإنشاء.

أما شعره : فلا روعة له ، ولا جمال فيه ، وقد نزع في نظمه إلى الإتباع لا الابتداع.

ومذهبه في الأدب أو طريقته أشبه بالطريقة الأولى (طريقة ابن المقفع) في سهولة عبارته ، وحرية تنسيقه ، وإنما تمتاز الجملة إلى فقرات كثيرة مقفاة أو مرسلة ، وزيادة الإيضاح في الألفاظ والجمل ، والاستطراد ، ومزج الجد بالهزل لدفع سآمة القارئ ، وتحليل المعنى

---

(١) النصوص الأدبية للسنة الثالثة - د/ عبد الحميد هلال ص ٥٠

واستقصائه، وتحكيم العقل والمنطق، والاعتراض بالجمل الدعائية.

وفي سمات وخصائص كتاباته يقول الدكتور/ شوقي ضيف:

"إنه لا يعنى دائماً بأسلوبه وسريان الازدواج فيه، وبألفاظه وملاءمتها لمعانيها موضوعاتها وقرائنها كما يعنى بسريان روح الدعابة والاستطراد من شعر إلى خبر إلى فكرة كلامية، إلى نادرة، إلى بيان سمة لشخص من معاصريه، إلى قرآن أو حديث، إلى فكرة من علم من علوم عصره، إلى عقيدة للمجوس، إلى ما لا يُحصى من المعارف وأحوال المجتمع، وبذلك ينفرد عن أدباء عصره؛ إذ جعل أدبه أدباً واقعياً يصوّر مجتمعه، وكل ما فيه من أخلاق وعادات.

نماذج من نثره:

من كتاب البخلاء: قال "خاقان بن صبيح": دخلت على رجل من أهل خراسان ليلاً، وإذا هو قد أتانا بسرجة فيها فتيلة في غاية الدقة، وإذا هو قد ألقى في دهن المسرجة شيئاً من ملح، وقد علق على عمود المنارة عوداً بخيط، وقد حز فيه، حتى صار فيه مكان للرباط. فكان المصباح إذا كاد يطفئ أشخص رأس الفتيلة بذلك. قال: فقلت له: ما بال العود مربوطاً؟ قال: هذا عود قد تشرب الدهن. فإن ضاع ولم يحفظ، احتجنا إلى واحد عطشان فإذا كان هذا دأبنا ودأبه، ضاع من دهننا في الشهر بقدر كفاية ليلة. قال "خاقان": فيا أنا أتعجب في نفسي، وأسأل الله - جل ذكره - العافية والستر، إذ دخل شيخ من أهل "مرو"، فنظر إلى العود، فقال: يا أبا فلان، فررت من شيء ووقعت في شبيه به.

أما تعلم أن الريح والشمس تأخذان من سائر الأشياء؟ أو ليس قد كان البارحة عند إطفاء السراج أروى، وهو عند إسراجك الليلة أعطش؟ قد كنت أنا جاهلاً مثلك، حتى وفقني الله إلى ما هو أرشد. - عافاك الله! - بدل العود إبرة أو مسلة صغيرة وعلى أن العود والخلال والقصبة ربما تعلقت بها الشعرة من قطن الفتيلة، إذا سويناها بها، فتشخص معها. وربما كان ذلك سبباً لانطفاء السراج. والحديد أملس. وهو مع ذلك غير شاف. قال خاقان: ففي تلك الليلة عرفت فضل أهل خراسان على سائر الناس، وفضل أهل "مرو"

على أهل خراسان! [1].

ومن كتاب "الحيوان": عجائب الوجود:

ثمّ اعلمْ أنّ الجبلَ ليس بأدلّ على اللّه من الحصاة، ولا الفَلَكَ المشتمل على عالَمنا هذا بأدلّ عَلَى اللّه من بدن الإنسان، وأنَّ صغيرَ ذلك ودقيقَهُ كعظيمهِ وجليلة، ولم تفترقِ الأمورُ في حقائقها. وإنما افترقَ المفكّرون فيها.

ومن شعره: الشيخوخة والشباب:

أترجو أن تكون وأنت شيخ ... كما كنت أيام الشباب ؟!

لقد كذبت نفسك ليس ثوب ... دريس كالجديد من الثياب

الخطابة

وهي فن مخاطبة الجماهير، وتعتمد أول ما تعتمد على الإقناع واستمالة السامعين والتأثير فيهم. فالذي لا يؤثر في عواطف السامعين لا يسمى خطيباً، وهذا لا يتيسر إلا لمن حباه الله ملكة البيان. والمقدرة على المشافهة والارتجال.

وقد كان العباسيون من الخلفاء وأقرباؤهم من العلويين وأعداؤهم من الخوارج وكبار القادة والولاة. ونبغ الناشئين من الفرس والأدباء على جانب رفيع من فصاحة الديهة وقوة الحجة. وامتلاك وسائل الإقناع.

والخطابة ضرورية لكل مجتمع، في سلمه وحربه. فهي أداة الدعوة إلى الرأي والتوجيه إلى الخير. ووسيلة الدعاة من الأنبياء والمرشدين والزعماء والمصلحين. فهي ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية[2].

والخطابة تتعثر إذا وجدت دواعيها، وتوفرت أسبابها. وفي العصر العباسي وجدت عوامل أدت إلى ازدهار في الخطابة، من أهمها:

١ - توضيح أصول الإسلام، وشرح مبادئه للعناصر غير المسلمة التي ضمها المجتمع

---

(١) تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي - تأليف عمر فروخ ص ٣١٠ وما بعدها

(٢) دراسات في الأدب العباسي ص ١٤٢.

في العصر العباسي ؛ لتدخل هذه العناصر في دين الله ، وطبيعي أن ألوان القول في مثل ذلك تتمثل في الخطب والمحاضرات.

٢ – استخدمت الخطابة في الرد على الذين أثاروا الشبه حول الإسلام والجدل في مسائله ، ومن هنا تكونت مدرسة للرد على هذه الشبه بالحجة البالغة والخطابة الممتعة . وكان هذا المجال معين الخطباء الذي لا ينضب.

٣ – كانت المناوشات على الحدود الإسلامية بين العرب والروم تستدعي دعاة للجهاد في سبيل الله ، ودفع العدو ، ونصرة دين الله ، وتأمين حدود الدولة ، والجهاد دافع من دوافع الخطابة ، وسبب مهم من أسباب نهضتها.

فقد كان لها في صدر هذا العصر مكانة في النفوس ، وسلطان على القلوب ؛ لاعتماد القوم عليها في توطيد الملك ، وتحميس الجند ، واستقبال الوفود ، وكان للخلفاء الأولين ودعاتهم فيها شأن رفيع ، مثل : المنصور ، والمهدي ، والرشيد ، والمأمون . فلما استوثق الأمر لبني العباس ، وقام الموالي بسياسة الدولة وقيادة الجيش ، وقلة النضال باللسان واللسان ، ضعفت الخطابة ؛ لضعف القدرة عليها ، وقلة الدواعي ، وحلت الرسائل والمنشورات محلها[1].

وقد تنوعت الخطابة وتعددت أغراضها ، وأهمها :

١ – الخطابة السياسية :

نشطت الخطابة السياسية منذ مطلع هذا العصر ، واعتمد العباسيون عليها في الدعوة لهم ، والتنفير من الحكم السابق ، ومن ذلك خطبة "أبي العباس السفاح" حين بويع بالخلافة في الكوفة ، وفيها يتحدث عن رحمهم وقرابتهم للرسول ﷺ تالياً من القرآن الكريم الآيات التي تتيد بأهل البيت . ثم يُعرِّض بالشيعة المغالية قائلاً : "وزعمت السبئية الغلاة أن غيرنا أحق بالخلافة . فشدهت وجوههم ، ولم أيها الناس ، وبنا هدى الله الناس بعد

---

(١) تاريخ الأدب العربي : أحمد حسن الزيات ص٢٤٣ .

ضلالتهم، ويصّرهم بعد جهالتهم، وأنقذهم بعد هلكتهم، وجمع الفرقة حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر [1].

٢ - الخطابة الدينية :

حرص خلفاء هذه الدولة على أن يكون شعارهم هو الدين والعمل على إعزازه والجمع بين الولاية والصلاة، فأموا الناس في الصلاة الجامعة، يلقون الخطب في الْجُمَع والاعياد، كما عهدوا بالخطابة إلا الكفاءة من العلماء، فنبغ في أواخر هذا العصر طائفة من الأدباء اشتهروا بهذا النوع من الخطابة، كالخطيب البغدادي، والخطيب التبريزي.

ولما استعجم المسلمون، ومَلَك العلماء ألسنة الوعّاظ فلم يستطيعوا إنشاء الخطب في الموضوعات المختلفة، عمدوا إلى استظهار خطب أسلافهم، "كابن نباتة المصري" وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمعناها، ولا علم بمغزاها، ودرجوا على هذه الحالة المخزية مدة طويلة، حتى أدركتها عوامل النهضة المصرية الحديثة.

نموذج من الخطابة الدينية :

خطب المهدي خطبة بارعة قال فيها : "عباد الله ، إنكم لم تُخلقوا عبثاً، ولم تُتركوا سُدى، حصّنوا إيمانكم بالأمانة، وديكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة، فقد جاء في الخبر أن النبي ﷺ قال: "لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له، ولا صلاة لمن لا زكاة له". إنكم سفر محتازون، وأنتم عن قريب تنقلون من دار فناء إلى دار بقاء؛ فسارعوا إلى المغفرة، وإلى الرحمة والتقوى، وإلى الهدى بالإنابة، فإن الله – تعالى – ذكر واجب رحمته للمتقين، ومغفرته للتائبين، وهداه للمنيبين.

٣ - الخطابة الحربية :

وكانت تلقى في الجنود في ميادين الحرب إثارة لروحهم، وتقوية لمعنوياتهم، ونصحاً لهم، وإشادة بقوتهم. وقد تعودها قادة الجيوش يستعينون بها على تشجيعهم على قتال العدو.

---

(١) محاضرات في الأدب العباسي – د/ على حاد الحق ص٢٩ .

وغالباً ما كانت تلك الخطب قصيرة في جملها، قوية في كلماتها، تستمد معانيها عالياً من الدين، ونصوص القرآن الكريم، والحديث الشريف.

ومن الخطب العسكرية خطبة "عبد الله بن طاهر بن الحسن" في قتال الخوارج: "إنكم فئة الله، المجاهدين عن حقه، الذابّون عن دينه، الذائدون عن محارمه، الداعون إلى ما أمر به من الاعتصام بحبله، والطاعة لولاة أمره الذين جعلهم رعاة الدين، ونظام المسلمين فاستجزوا موعود الله ونصره، بمجاهدة عدوه، فليكن الصبر معلقكم الذي إليه تلجأون وعدتكم التي بها تستظهرون[1].

٤ - الوعظ والإرشاد:

هو لون من النثر يجرى على اللسان، يقوم على الوعظ، والقص، والتذكير بالآخرة، والتخويف من عقابها. وقد احتاج العصر العباسي لهذا النوع من الخطابة، بعد أن تفشّت فيه الموبقات، وانتشر الفساد.

امتلأت بالوعاظ والسمّاك المجالس والمساجد، يسمعهم الناس فيكونون متأثرين بأقوالهم، وممن اشتهر بالوعظ "عمرو بن عبيد"، و"صالح بن عبد الجليل"، و"ابن السماك" واعظ الرشيد، وغيرهم.

الخصائص الفنية للخطابة في العصر العباسي الأول:

تميزت الخطابة في هذا العصر بروعة تجذب الناس إلى الاستماع لكلام الخطيب والفتنة بأساليبه، فكان الخطيب يستعين بآيات من الذكر الحكيم، وأحاديث الرسول ﷺ والقصص الديني، كما تميزت الخطابة بوجه عام بتفرع المعاني وتشعبها، وعنى الخطباء عناية واسعة بالأساليب، والدقة في اختيار اللفظ، والإحساس المرهف بجمال السبك والصياغة، وأدى بهم ذلك في بعض الأحيان إلى استخدام السجع مثل "الفضل بن عيسى الرقاشي"، وفيه يقول "الجاحظ": "كان ساجعاً في قصصه، وكان من أخطب الناس".

---

(١) العصر العباسي الأول - د/ شوقي ضيف ص٤٥٦.

كما امتازت الخطابة غالباً بالسهولة والوضوح، وظهر فيها التأثير المنطقي، فاهتم الخطباء بالإقناع عن طريق الحجج والبراهين، وغلب عليها تنويع الأسلوب بين الخبر والإنشاء. كما عنوا بروعة الصورة والأخيلة

الكتابة الفنية و موضوعاتها:

هي الكلام الذي يبدع فيه كاتبه في التعبير، ويتروى في تأليفه، ويتأنق في اختيار ألفاظه وأساليبه، ويعمل فيه فكره في ترتيب أفكاره الجزئية، وتنظيم أفكاره الكلية، مع الاعتماد على الخيال والتصوير. والمحسّنات البديعية في تحسين الأسلوب وتوضيحه.

وقد نشطت الكتابة في هذا العصر نشاطاً كبيراً من ذوى الرأي والخبرة، ومما يدل على أن الكتابة بلغت ذروتها في العصر العباسي تلك المنزلة التي تسنّمها الكُتّاب. فقد تبوأوا المراتب العليا في الدولة، حتى كان منهم الوزراء "كابن العميد". و"الصابى"، و"المهلبى". كما كانوا يحصلون على ثروات طائلة من هذه الوظيفة.

وكانت منزلة الكاتب في الدواوين ترتفع على كل منزلة، ومكانة تسمو على كل منزلة، وهو – كما يروى – مستشار الخليفة، وصاحب الرأي في مجلسه.

ويقول الدكتور / شوقي ضيف في رقى الكتابة وأسباب ذلك بعد أن ذكر تعقّد الدواوين وتنوّعها بدواوين للخراج، ودواوين للنفقات، ودواوين للجيش، ودواوين للحرب:

"وبذلك نشطت الكتابة في هذا العصر نشاطاً واسعاً. فقد توفر عليها مئات من أصحاب الأقلام. يخدومهم في ذلك ما كانت تدرد عليهم من أرزاق واسعة.. ولم يكن نجاح الكاتب هيناً. فقد كان لا بد له من إحسان صناعة الكتابة، وإتقانها، من حيث الوضوح والجمال الفني والمادة الفارسية السياسية والأخلاقية المترجمة كانت أهم المؤثرات في رقى الكتابة الديوانية وتطورها [1].

---

(١) العصر العباسى الأول – د/ شوقى ضيف ص٤٦٥ .

موضوعاتها : ويمكن تقسيم الكتابة إلى أنواع ، بحسب موضوعاتها ، فهناك :

١ – الرسائل الديوانية :

وهى واضحة من اسمها ، فهي التي تصدر عن ديوان الخلافة ، ولا تخرج موضوعاتها عن تصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة ، وأخذ البيعة ، والفتوح والجهاد وتدبير السياسة والحكم.. الخ.

٢ – الرسائل الإخوانية :

وهى التي يتبادلها الإخوان والأصدقاء مع بعضهم البعض ، من تهنئة أو تعزية أو عتاب.. الخ.

٣ – الرسائل الأدبية :

وهى التي تعالج فناً من الفنون ، أو علماً من العلوم ، وهى كثيرة ، ومتنوعة ، ومن أهم كُتَّابها : "أبو عثمان الجاحظ" ، ورسائله مشهورة طبقت الآفاق.

نماذج من الكتابة:

كتب الخليفة "المأمون" ، وهو ابن "هارون الرّشيد" رسالة من رسائله "الدّيوانيّة" وذلك لتقرأ على أهل "خراسان" ، ليكن أوّل ما تعهّدون به أنفسكم ، وتثابرون عليه من مصالح أدبكم تناصف الحقّ بينكم بتقديم أهل الفضائل والآثار المحمودة منكم ، وتفخيم أمرهم ، فقد علمتم أن منكم المبرز الفائت الذي لا يدرك شأوه ، ولا يوازى بلاؤه

ويكتب "الجاحظ" رسالة في الحسد يقول فيها : "الحسد – أبقاك الله – داءٌ ينهك الجسد ، وينسد الأود ، علاجه عسير ، وصاحبه ضجر ، وهو باب عامض ، وأمر متعذّر فما ظهر منه فلا يُداوَى ، وما بطَن فمداويه في عَنَاء ، الحسد عضيد الكفر ، وحليف الباطل وضدّ الحقّ ، وحرب البيان ، وقد ذمّ الله أهل الكتاب فقال – تعالى :

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ۖ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ (١)

فمنه تتولّد العداوة، وهو سبب كلّ قطيعة ومنتج كل وحشة، ومفرّق كلّ جماعة وقاطع كلّ رحم بين الأقرباء، ومحدث التفرّق بين القرناء، يكمن في الصّدور كُمُون النّار في الحجر. وقد قال بعض الأعراب: "ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد. نفس دائم وقلب هائم، وحُزْن ملازم".

فن التوقيعات :

فنّ التّوقيعات هو ما يعلّق به الخليفة أو الأمير أو الوزير على ما يرد إليه من الرّسائل والكتب في شكوى مال، أو طلب نوال. والذي يميّزها هو "الجمع بين الإيجاز، و الجمال والقوّة". وقد تكون آية، أو مثلاً، أو بيت شعر.

ومن الأمثلة التي نسوقها لفنّ التّوقيعات ما وقع به الخليفة "أبو جعفر المنصور" في كتاب أتاه من صاحب الهند، يخبره أن جُنْداً شغبوا عليه، وكسروا أقفال بيت المال. فوقّع الخليفة "أبو جعفر المنصور" بقوله: "لو عَدَلْت لم يشغبوا. ولو وفّيت لم ينهبوا".

ووقّع الخليفة "هارون الرشيد" إلى صاحب "خراسان": "داوِ جُرحك لا يتّسع" ووقّع في كتبة "جعفر بن يحيى": "أنبتته الطاعة، وحصدته المعصية"

ووقّع "المأمون" في قصّة متظلّم "أبي عيسى" أخيه:

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (٢)

ان الكتاب في العصر العباسي الأول ينقسمون إلى طبقتين:

الطبقة الأولى: الطبقة الأولى من الكتّاب في هذا العصر كان إمامها "عبد الله بن المقفّع". وتتميّز هذه طريقة "ابن المقفّع" بتنويع العبارة. وتقطيع الجملة، والمراوحة

---

(١) سورة البقرة - ١٠٩

(٢) راجع: تاريخ الأدب الأموي – للأستاذ/ أحمد حسن الزيات ص٢٤٥ .

بين الكلمات، وتوخي السّهولة، والعناية بالمعنى، والزّهادة في السّجع. ومن رجال هذه الطبقة: "يعقوب بن داود" و"جعفر بن يحيى"، و"الحسن بن سهل بن هارون" و"الحسن بن وهب".

الطبقة الثانية: وكان إمام هذه الطّبقة "عمرو بن بحر" المكنى "أبو عثمان"، والملقب "بالجاحظ"، إمام العربية، وسيّد هذه الطبقة. وطريقته أشبه بالطريقة الأولى، وذلك في سهولة العبارة، وجزالتها، وتمتاز بتقطيع الجمل إلى فقرات كثيرة "مقفّاة أو مرسلة" وزيادة الإطناب في الألفاظ والجمل، والاستطراد، ومزج الجدّ بالهزل وذلك لدفع السّآمة لدى القارئ، وتحليل المعنى واستقصائه، وتحكيم العقل والمنطق، والاعتراض بالجمل الدّعائية، ومن رجال هذه الطبقة "ابن قتيبة"، و"المبرّد".

الشعر في العصر العباسي الأول:

ازدهار الشعر وأسبابه:

قد اجتمعت للشعر في العصر العباسي الأول عوامل كثُر أدّت إلى ازدهاره ورقيّه ومن أهم هذه العوامل ما يلي:

- أولاً: الامتزاج الشّديد بين عناصر المجتمع، مع نشأة جيل يتميز بصفات عقلية جديدة أيضاً.
- ثانياً: الرّقي الحضاري الذي عشت في ظلّه الدولة العباسية، ونعم فيه الشعراء، مع التمتع بالطبيعة الغنّاء المرحة، والتي كانت تحيط بهم من كلّ المناحي، وتغمرهم من شتى النواحي، كما كانوا يعمون بمباهج الحياة من حَواليهم من القصور الفاخرة والحدائق ذات البهجة النّاضرة، والتّماثيل الرّائعة، وغير ذلك من مظاهر الحضارة التي تثلج الصدر، وتبهج القلب، وتبعث على القَوْل، وإنشاد الشعر، وإثراء الحياة الأدبية بوجه عام.
- ثالثاً: تقدير الخلفاء للشعر والأدباء، واحتفاؤهم بالأدب والشعر، واهتمامهم بالمجالس الأدبية، وخاصّة مجالس إنشاد الشعر، فقد كان الخلفاء يحتفون بهذه المجالس

الشعرية، ويستمعون إلى الشعراء وينقدونهم، وإجازة كثير منهم، وإغداق الأموال عليهم، مما أدّى إلى إثراء الشعر. وتشجيع الشّعراء على القول والإجادة، ولعلّ ذلك راجع إلى أن بعض الخلفاء أو أن كثرة كاثرة منهم كان يقرض الشعر ويتذوقه وينقده.

- رابعاً: كثرة الشعراء ذوي السّليقة العربية السّليمة.
- خامساً: الرّقي الثّقافي الذي اتّسعت آفاقه عن طريق التأليف والترجمة.
- سادساً: رواية الشعر العربي القديم، حيث كان للّغويين دور كبير في حفظ الشّعر العربي، ووضع المقاييس الدّقيقة للشّعراء[1].

وكان لهذه العوامل أثرها في اتّساع خيال الشّعراء، وإثراء معارفهم، ولعلمهم وأفكارهم. ونرى أثر ذلك واضحاً جليّاً في فنونهم الأدبية.

المحدثون ومذهبهم في الشعر:

إن المحدثين من الشعراء هم الشعراء الذين نشأوا في العصر العباسي، وتأثروا بمظاهر الحضارة المتباينة فيه. والمولّدون منهم وهم الذين نشأوا من أب عربي وأمّ أعجمية وبعضهم كانت أصولهم كلّها أعجمية، وقد يطلق لفظ "المولدين" على من يطلق عليهم لفظ المحدثين من شهود العصر العباسي وحضارته من اتّساع أفق الخيال، وذلك باتّساع المشاهد، والمناظر المتباينة في هذه المشاهد، مما أدّى إلى اتّساع خيال الشعراء، وبعثهم على القول والإجادة

مذهب المحدثين في الشعر والفارق بينهم وبين القدماء:

هناك اختلاف بين المحدثين في مذهبهم في الشعر وبين القدامى، وذلك فيما يلي:

- أولاً: تناول المحدثون معاني المتقدّمين، وزادوا عليها، وأماطوا اللّثام عن مواطن الجمال فيها.
- ثانياً: المعاني المبتكرة. والتي لم تكن تخطر للمتقدّمين على بال.

---

(١) انظر العصر العباسي الأول – للدكتور/ شوقي ضيف ص١٣٨ وما بعدها بتصرف.

- ثالثاً: ومن براعتهم وذكائهم استطاعوا إلباس هذه المعاني أعذب الكلمات، وأيسر العبارات.
- رابعاً: إضافة أغراض جديدة إلى الشعر العربي لم تكن موجودة، أو معروفة في الشعر العربي من قبل.
- خامساً: اخترعوا وابتكروا واخترعوا الصور الرائعة التي تسرّ النفس، وتجلّ عن الوصف.
- سادساً: امتازوا ببراعة الاستهلال، وحسن التخلّص والخروج[1]. ومن بديع ابتدائهم قول الشاعر "أبو تمام":

السّيف أصدق أنباء من الكتب في حدّه الحدّ بين الجدّ واللّعب

الخصومة الأدبية بين المحدثين والقدماء:

اشتدت الخصومة بين نقاد العرب الأقدمين، وبين الشعراء المحدثين، فرأى بعضهم أن الفضل قد حازه الأقدمون من الشعراء، وأن المحدثين ليسوا شيئاً إلى جانبهم، فلا يروون أشعارهم، ولا يستشهدون بما يقرضون، وكان على رأس هؤلاء "أبو عمرو بن العلاء" و"ابن الأعرابي"، بينما يرى البعض الآخر أن الفضل والنقص موزّعان بين المتقدمين والمتأخرين، وأن المتأخر لا يضره تأخره إذا أجاد، كما لا ينفع المتقدم تقدمه إذا قصّر فليس التقدّم في الزمن مقياساً للجودة. ورغم هذا الاتجاه المتحرّر يرى الكثيرون أنّ المحدثين من الشعراء يجب عليهم أن ينهجوا في بناء القصيدة نهج القدماء.

ولقد نادى "أبو نواس" في القديم خطأ هذا الاتجاه من الشعراء، ودعاهم إلى أن يعيشوا في حاضرهم، ويصفوا ما يرونه، لا أن يقلدوا السابقين في وصف ما لا يشاهدون وهو في ذلك يؤمن بفعل الزمن وتغير المكان، ومما قاله في ذلك:

صفة الطلول بلاغة القدم فاجعل صفاتك لابنة الكرم [2]

---

(١) راجع: دراسات في الأدب العباسي – للدكتور عبد فتاوى.

(٢) أسس النقد الأدبي عند العرب – أحمد بدوي ص٤٠٢ وما بعدها – ط: نهضة مصر.

وعلى الرغم من معارضة أنصار القديم . واستسالهم في دعوتهم ، فإن تيار التطور الهادر أغرق صيحاتهم في محيطه ، وقذف بهم على شاطئه . فكأنهم الأعواد اليابسة . وقد راد في ثقلها طول مكثها في الماء الذي لا تأسن . ومضى إلى غايته ، والشعر يحدوه ويترسم خطاه ، وما كان للشعر أن يخمد والحياة من حوله تتحرك ، لأنه طلّها الذي لا ينفصل عنها وما دام التطور قد امتد أثره إلى المبادين السياسية والاجتماعية والثقافية ، فالشعر لا محالة متطور تلقائياً[1]

وقد بسط "ابن سنان الخفاجي" قضية الخلاف حول المتقدمين والمحدثين فقال :

"ذهب قوم من الرواة أهل اللغة إلى تفضيل أشعار المتقدمين على المحدثين ، واختلفوا في السبب : فذهبت طائفة إلى أن العلة مجرد التقدم في الزمن . وقيل : السبب أن المتقدمين سبقوا إلى المعاني.

وقيل : إن أشعار المتقدمين كانت من قائلها بالطبع ، ومن غير تكلّف والأشعار المحدثة فيها تكلّف. وذهبت طائفة أخرى إلى أن قائل الشعر وتقدم زمانه أو تأخره لا تأثير له ، لأن القديم كان محدثاً ، والمحدث سيصير قديماً.

وفي المحدثين من هو أشعر من جماعة المتقدّمين ، وفي المتقدمين من هو أشعر من جماعة المحدثين . وذهب إلى ذلك "الحاتمي" ، و"المبرد" ، و"البحتري" ، وهو الصحيح.

وأمّا من ذهب إلى تفضيل المتقدم لمجرد تقدم زمانه ، فإنه لم يذهب في ذلك إلى علة غير مجرد الدعوة.

وأمّا مَن فضّل أشعار المتقدّمين من حيث سبقوا إلى المعاني والألفاظ ، فإنه يقال له : هذا لو ثبت لدلّ على فضل المتقدّمين على المحدثين ، ولم يدل على فضل شعر هؤلاء ، لأنه ليس كل من كان أفضل وجب أن يكون شعره أحسن.

وأما من ذهب إلى تفضيل شعر المتقدّمين على شعر المحدثين من حيث كانوا لم يتكلّفوا أشعارهم ، ونظموا بالطبع ، والمحدثين بخلاف ذلك ، فإنه يقال له : ما الدليل على أنّ

---

(١) تاريخ الأدب العربي في العصر الذهبي – د/ عبد الرحمن عثمان ص٣٧ .

أشعار المتقدّمين كانت تقع من غير تكلُّف، فإن قال: بهذا جاءت الروايات عنهم، قيل له: الأمر بخلاف ذلك، فالمروى عن "زهير" أنه عمل سبع سنين، وكان يسميها "الحوليات" ويقول: خير الشّعر الحولي المنقح، والرواة يُجمعون على هذا.

وإذا فضّلوا شعر "زهير" قالوا: كان يختار الألفاظ، ويجتهد في إحكام الصنعة، وهذا كلّه بمعزل عن الطّبع وسهولة النظم[1].

○ طبقات الشعراء المحدثين :

لا نكاد نمضي في القرن الثالث للهجرة حتى يقوم على صناعة الشعر أمشاج من العرب والموالى، الذين كانوا يعيشون في المراكز العقلية الكبرى، وخاصة البصرة والكوفة فكان طبيعياً أن تتطوّر صورته، وأن تختلف عن صورة الشعر القديم، الذي كان يُستمد من علاقات البادية، وصلاتها الحسيّة والمعنويّة؛ لسبب بسيط: وهو أن مَن ينظمونه يحيون في المدن، وتؤثر فيهم علاقات وصلات جديدة. بعضها سياسي، وبعضها حضاري واجتماعي، وبعضها عقلي وثقافي[2].

فظهر في ميدان الشعر صفوة من الشعراء، تميزوا بأدائهم الشعري الخاص بهم وأذاعوا الآراء الحرّة، والمعاني المبتكرة، والأخيلة البديعة، والأوصاف الدقيقة، والمذاهب الجديدة، والعبقريات المأثورة، ورواة الشعر ونقدته متفقون على أن "بشاراً بن برد" زعيم هذه الطبقة – أعني طبقة المحدثين أو "المولدين"[3].

أما "أبو تمام" رأس الطبقة الثانية من المولدين. وقد جمع بين معاني المتقدمين والمتأخرين، ظهر والحضارة راقية، والعلوم مترجمة، فحصف عقله، ولطف خياله بالاطلاع عليها، واستنبط من ذلك طريقته التي آثر بها تجويد المعنى على تسهيل العبارة[4].

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي تحقيق: عبد المتعال الصعيدي ص٢٧٠ وما بعدها بتصرف، مطبعة صبيح ١٩٦٩م.
(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي – د/ شوقي ضيف ص٩١ .
(٣) تاريخ الأدب العربي – أحمد حسن الزيات ص٢٩٧ .
(٤) السابق ص٣٣١ .

وفي زعامة "بشار" للشعراء المحدثين والجيل التالي له يقول الدكتور / "شوقي ضيف" :

"يُجمع الرواة والنقاد على أن "بشار بن برد" زعيم الشعراء المحدثين، وفي طليعة من أرسوا الأسلوب المولّد الجديد، وأسلوبه يمتاز بالنصاعة، والرصانة، والصفاء، والرونق، وتلاه جيل من الشعراء توزعوا بين من يؤثر الجزالة والفخامة، مثل "مسلم بن الوليد"، ومن يؤثر الليونة والسهولة، مثل: "أبي العتاهية". وكان معاصره "أبو نواس" يحتفظ بكل ما يمكن من جزالة في الشعر الرسمي. وفي بعض شعره الشخصي. وكثيراً ما يعمد في الضرب الأخير إلى السهولة المفرطة، على أن الشعراء سرعان من انصرفوا عن طريق "أبي العتاهية"، مؤثرين طريق "بشار" وما انتهى إليه هذا الطريق عند "مسلم" من المتانة وقوة البناء، وخلفه "أبو تمام"[1]

٥ الطبع والصنعة :

لكل شاعر نهجه الذي يلائم مزاجه وثقافته في تناول المعنى. والتعبير عنها، وهو نهج مستمد من العاطفة الفنية، ومن العقل الذي يتحرك على ضوء العاطفة في وعي ويقظة. ولن نجد شاعرين يلتقيان على نهج متّحد في الشعور بالمعنى والإفصاح عنه. وإنما يقع التشابه في تقاربهما من حيث الطريقة والمذهب الفني تجاه المعاني وصياغتها.

وهذه الحقيقة الثابتة تحول بيننا وبين تقصي المذاهب الفنية لجميع شعراء العصر الذهبي. كما هو واضح، والذي نستطيعه هنا هو أن نعتبر التقارب فيها إصرة بين المذهب وشبهه، على ألا يسيء ذلك الفروق الدقيقة التي ينبغي أن نفطن إليها على ما بها من دقة وخفاء[2]

والطبع والصنعة هما أصلان من أصول المذاهب الفنية لشعراء العصر العباسي. ولقد رأى القدماء أن خلو الأثر الأدبي من آثار التجويد والتنقيح هو الطبع، كما أن التهذيب الفني للأسلوب هو الصنعة

---

(١) العصر العباسي الأول – د/ شوقي ضيف ص١٤٦ : ١٤٧ .
(٢) الأسس في عصور الذهبي – د/ عبد الرحمن عثمان ص٨٢ .

أما المحدثون فيرون أن شعر الطّبع هو ما كان صادقاً مؤثراً، وإلا فهو مصنوع متكلف.

ويجمع الدكتور/ "محمد عبد المنعم خفاجي" بين الرّأيين ، حين يرى أن الطّبع هو المَلَكة القادرة في نفس الشاعر والأديب ، التي تحوى إليه بفنه، وأدبه وحى الفطرة والطبيعة، واستجابة لعواطفه ومشاعره، دون تكلّف وتعب في الصّوغ، واستجداء لترف الأسلوب والصّناعة.

والصّنعة : هي إحساس الشاعر أو الأديب بآثار الجمال الفني، وترف الأداء، وزخرف الأسلوب، وحُبّه لهذا الجمال والترف والزخرف، وهيامه الفني بها، وقَصْده إليها، وتعمّده لها في شعره، حتى ليطلب الفن للفن، ويستلهم الجمال للجمال[1].

وفي العصر العباسي قصَد الشعراء المحدثون، وهم الذين نشأوا في ظلال الدولة العباسية، وفي ظلال الامتزاج الذي حدث بين العرب والأمم الأخرى – قصدوا إلى ألوان خاصّة من الأساليب الساحرة التي يتجلى فيها ترف الفن، وجمال الصّنعة، وسحر الأداء من استعارة، وتشبيه، وجناس وطباق ومقابلة، وحسن تعليل، وسوى هذه الألوان، على أن هذه الصفة الشعرية لم تتسبع ظاهرة فنية مقصودة، وتهذيباً أدبياً واسعاً للشّعر، ومذهباً جديداً مؤثراً إلا على أيدي المحدثين عامّة ، وعلى أيدي "مسلم بن الوليد" و"أبى تمام" على وجه الخصوص.

وحقاً كان "مسلم" زعيم التصنيع في عصره، فقد استطاع أن يجعله الغاية من صنع نماذجه، فالقصيدة عنده لا تعبر عن خواطر، وإنما تعبر عن ألوان. وأما "أبو تمام" فإن "ابن رشيق" يقول عنه وعن تلميذه "البحتري":

"فكانا يطلبان الصنعة، ويولعان بها، فأما "حبيب" فيذهب إلى خشونة اللفظ، وما يملأ الأسماع منع، مع التصنيع المحكم طوعاً وكرهاً. يأتي للأشياء من بعد. ويطلبها بكلفة. ويأخذها بقوة. وأما "البحتري" فكان أملح الناس صنعة، وأحسن مذهباً في الكلام يسلك منه دماثة وسهولة، مع إحكام الصنعة، وقُرب المأخذ، لا يظهر عليه كلفة

(١) دراسات في الأدب العباسي ص٦٢ : ٦٣ .

ولا متفذة[1].

ويقول في "ابن المعتز": وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنيعاً من "عبد الله بن المعتز"، فإن صنعته حقيقة لصنيعة لا تكاد تظهر في بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر وقد انتهى علم البديع والصنعة إلى "ابن المعتز"، وختم به وإن كان مذهب الصنعة قد استمر منهجاً لكثر من الشعراء"[2].

○ خصائص شعر المحدثين :

قال "أبو الفتح عثمان بن جني": "المولدون يستشهد بهم في المعاني، كما يستشهد بالقدماء في الألفاظ"، والذي ذكره "ابن جني" صحيح بيِّن؛ لأن المعاني إنما اتسعت لاتساع الناس في الدنيا، وانتشار العرب بالإسلام في أقطار الأرض. فمصّروا الأمصار، وحضروا الحواضر، وتأنقوا في المطاعم والملابس. وعرفوا بالعيان عافية ما دلتهم عليه بداهة العقول من فضل التشبيه وغيره"[3].

ولا شك أن الشعر يتطور دائماً تبعاً لتطور الحياة من حوله، وشعر المحدثين والمولدين وأهل الحضر الذي ينساب من أفواههم رقيق الحاشية، عذب اللفظ، تحمله الرقة، وتلمح في نسجه ومضات الثقافة الأعجمية. ويجري في مائه أنس الحضارة وعمق الخيال الخصيب.

ويجئ على رأس هذه الطائفة "بشار بن برد"، و"أبو نواس"، و"مسلم بن الوليد" و"أبو تمام" ومدرسته، وغيرهم[4].

والشعراء المولدون – وإن كانت بعض أشعارهم فيها جلالة ومجون – فإنهم "أتوا الآراء الحرة، والمعاني المبتكرة، والأخيلة البديعة، والأوصاف الدقيقة، والمذاهب الجديدة

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – لابن رشيق ١/١٣٠

(٢) دراسات في الأدب العباسي – سيد قطاوي ص٦٨ . تاريخ الأدب في العصر العباسي – د/ محمد عبد المنعم خفاجي.

(٣) العمدة – لابن رشيق ٢/٢٣٦

(٤) دراسات في تاريخ الأدب العربي – د/ عبد الرحمن عثمان ص٣٦ .

والعبقريات المأثورة من أمثال "بشار" و"أبي نواس" و"مسلم بن الوليد"[1]

يمكن إبراز أهم الخصائص التي تُميِّز شعر المحدثين فيما يأتي :

أولا: من ناحية المعاني والأخيلة:

كان طبيعياً في ذلك العصر الذي شاع فيه العلم والفلسفة والثقافة أن يخصب خيال الشعراء، وتعمق معانيهم، فظهر الترتيب بين عناصر القصيدة وبين المعاني الجزئية لكل عنصر على نحو لم يُعرف من قبل، ووضح في شعر هذا العصر حُسن التصوير وروعة الخيال، وجَمُلت التشبيهات والاستعارات.

فلقد تيسرت العلوم، وأصبحت كلأً مباحاً لمحبي الثقافة، وعشاق العلياء، وأصحاب الهمم العلية، والنفوس الطموحة في هذا العصر، فانفتحت أمامها العقول، ونمت الأفكار واتسع الخيال، كما أن طبيعة البلاد الخصبة قد هيأت للحضارة أن تزدهر، وأن تأتي بأطيب الثمرات، فهل يستعصي بعد ذلك على العقول أن تأتي بالأخيلة البديعة، وتغوص لتلتقط الدور من المعاني[2].

ولثقافة الأديب دور بارز في شعره وشاعريته، فازدهار الأدب مرتبط إلى حد كبير بازدهار الثقافة، ودور الثقافة يبدوا واضحاً في دقة الأفكار، وتوليد المعاني بالإضافة إلى دورها البارز في الألفاظ والأساليب والصور.

وإن من يتصفح ديوان الشعر العباسي كله يبهره ما يجده من عميق المعاني، ودقيق الأفكار، ويشعر فيه بأثر الثقافات المتعددة، والحضارات الممتزجة، فيلحظ أثر الفلسفة اليونانية، وروح الحكمة الهندية، ورحيق الثقافة الإسلامية، وعروق الحضارة الفارسية فلولا المنطق اليوناني ما كانت حكمة "أبي تمام" أو دقة "ابن الرومي"، ولولا الثقافة الدينية ما كان شعراء الزهد والتصوف، ولولا مباحث الفلاسفة ما كانت عقلية "أبي تمام"[3] ولولا البحث في الأمور العقدية ما كانت ردود العلماء القوية المفحمة للملحدين وللمتزندقين

---

(١) تاريخ الأدب العربي – أحمد حسن الزيات ص٢٩٧ .
(٢) محاضرات في تاريخ الأدب العباسي ص٩ بتصرف.
(٣) دارسات في الأدب العباسي – د/ عبد قناوي ص٢٩ بتصرف.

لقد اتسعت المعاني أمام الشاعر اتساعاً كبيراً، بتأثير رقي الحياة العقلية والاجتماعية وتعدد ألوان الحضارة، وكثرة مظاهر الطبيعة، ورقي المعرفة، وأنماط التعليم، فنضج خيال الشعراء، وقوى تحليقهم في أودية الشعر وأخيلته. وحالوا في كل مجال، انظر إلى قول "إبراهيم بن إسحاق الموصلي":

أفكر في قلبي بأي عقوبة ... أعاقبه فيها لترضى فما أدرى

سوى هجرها والهجر فيه دماره ... فعاقبته فيها من الهجر بالهجر

فكنت كمن خاف الندى أن يبله ... فعاذ من الميذاب والقطر بالبحر

ومن عميق المعاني والأفكار التي تدل على ثقافة الشاعر، وعلمه بالحجج والبراهين العقلية، وكيفية الإقناع ما نراه في مدح "أبي تمام" لـ "أحمد بن المعتصم" في قوله:

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس

وكان "الكندى" حاضراً فقال: الأمير أكبر ممن شبهت بهم. فقال:

لا تنكروا ضربي له من دونه ... مثلاً شروراً في الندى والباس

تالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلاً من المشكاة والنبراس

وكذلك ما نراه في قول "ابن الرومي" من دقة في التعبير والمعنى:

وإذا امرؤ مدح امرءاً لنواله ... وأطال فيه فقد أراد هجاءه

لو لم يقدر فيه بعد المستقى ... عند الورد لما أطال رشاءه

ومن المعاني الفلسفية ما نلمح من حكم كثيرة ذاعت وشاعت على ألسنة الكثير من الشعراء، فمن ذلك قول "بشار":

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم

ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافي قوة للقوادم

ويعلل "ابن رشيق" لاتساع المعاني في هذا العصر بقوله: "إن المعاني إنما اتسعت لاتساع الناس في الدنيا، وانتشار العرب بالإسلام في أقطار الأرض، فمصّروا الأمصار

وحضّروا الحواضر، وتأنّقوا في الملابس والمطاعم، وعرفوا بالعيان عاقبة ما دلتهم عليه بداهة العقول من فضل التشبيه وغيره.

ومن بديع "أبي تمام" قوله :

فأسلم سلمت من الآفات ما سلمت ... سلاّم سلمى ومهما أورق السلم

من أروع التشبيهات قول "بشار" :

ودعجاء المحاجر من مق ... كأن حديثها ثمر الجنان

إذا قامت لحاجتها تثنت ... كأن عظامها من خيزران

ومن جميل التشبيهات قول "أبي تمام" :

وإذا أراد الله نشر فضيلة ... طويت أتاح لها لسان حسود

لولا اشتعال النار فيما جاورت ... ما كان يُعرف طيب عرف العود

ومن تشبيهات "أبي نواس" خاصة قوله:

في كؤوس كأنهن نجوم ... دائرات بروحهما أيدينا

طالعات مع السّقاة علينا ... فإذا ما غربن فنينا

ثانيا : من ناحية الألفاظ والأساليب:

لقد كان للتطور الذي شهده العصر العباسي الأول كبير الأثر في "ألفاظ الشعر وأساليبه"، حيث إن الألفاظ التي كانت متعلّقة بحياة العرب السّالفة انقرضت، أو كادت فلا نجد ذِكْراً للبادية والصّحراء والرّمال والقفار، والأثافي، والبيداء، والنّوق والبقر الوحشي والحُمُر الوحشية. فقد تركوا كلّ هذا، وشاعت في أشعارهم ألفاظ الدّور والقصور والحدائق والخمر، والقُدُود، والخدود، والأباريق، والقيان. فهذا التطور الذي حدث في المجتمع أنشأ جوّاً حضارياً جديداً قضى على ألفاظ، كما أنه استحدث ألفاظاً أخرى

ومن دلائل التجديد "النقد البياني" الذي جعل أساس البلاغة في الألفاظ السّهلة والحلاوة ، والجزالة [1]

ولم يقف التطور لدى الألفاظ فحسب ، بل نرى في استخدام الأساليب البلاغية مثل : "التشبيه ، والتمثيل ، والكتابة ، والمجاز ، وتحلية الكلام بالمحسنات اللفظية والمعنوية" كما شغفوا باستعمال ألفاظ القرآن الكريم ، ومحاكاة أساليبه ، واقتباس آياته ، واقتباس ألفاظ الحديث الشريف ، والاستشهاد بها ، مما عاد على الأسلوب بالرّوعة والجمال[2].

كما شاع "الأسلوب المنطقي" ، وهو الأسلوب الذي يلتزم المرء بالحديث فيه ، والمعنى بالكلام معه على طريقة أهل المنطق ، وهو أخذ نتيجة من مقدّمات توحى بها ، وتعلن عنها وتجر إليها على شكل "العلة والمعلول" و"السبب والمسبب"[3].

ومن ذلك قول "أبي تمام" :

وطول مقام المرء في الحي مُخْلِق ... فـــــاغترب تتجـــــدّد

فإني رأيت الشمس زيـدت محبّـة ... إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وقول "البحتري" :

دنوت تواضُعاً وعلـوت نـدرا ... فمـا نـال انخفـاض وارتفـاع

كذاك الشـمس تبعـد أن تسـامى ... ويدنو الضّوء منهـا والشّعاع

وقوله أيضاً :

دانٍ على أيـدي العفـاة وشـائع ... عن كلّ ندّ في النّدى وضـريب

كالبدر أفرط في العلـوّ وضـوؤه ... للعصبة السّـارين جـدّ قريـب

كما لجأ الأدباء إلى الفكاهة في أساليبهم ، حتى تلقى رواجاً وإقبالاً عليها من القراء

---

(١) دراسات في الأدب العربي – د/ عيد قاوي ص٣٢ بتصرف

(٢) محاضرات في الأدب العباسي

(٣) دراسات في الأدب العباسي ص٣٨ .

والمتذوّقين، وقدوتهم في ذلك شيخ الأدباء "الجاحظ" في مؤلفاته التي تغصّ بهذه النكات والفكاهات. و"ابن الرومي" في أشعاره، ومنها قوله في مغنية:

غنت فمس القلب كل كرب واستوجبت منا أليم الضرب

كما لجأ بعض شعراء العصر إلى الأسلوب الرمزي الذي دعت الحاجة إلى استخدامه، ولقد عنى الشعراء المحدثون أو المولدون بالصورة عناية كبيرة، فقد دعوا إلى جدة الصورة الشعرية، وازدياد طاقتها الإيحائية، وقدرتها على التعبير عن روح العصر ولقد كان لـ "أبي نواس" في ذلك أثر لا يُنكَر؛ إذ تميّز شعره بروعة الصورة النابعة من الملاحظة الدقيقة، والخيال الشعري غير المحدود، مع وضوح وبساطة في التناول، وقد لفت كل هذا أنظار المستشرقين إلى شعره، بالإضافة إلى ثورته على التقاليد الشعرية وبساطة أسلوبه.

ويتصل بتطور الصورة الشعرية تطور مصادرها، وغلبة الطابع العقلي والنمط الاستدلالي عليها، وربما كان هذا أثراً من آثار الثقافة الإسلامية أولاً، والثقافات الوافدة ثانياً. فالثقافة الإسلامية قد أمدت الشعراء بزاد لا ينفد من صور الترغيب في نعيم الآخرة والترهيب من عذابها. كما أن الثقافات الوافدة – وبخاصة الثقافة اليونانية – قد أعانتهم على تشكيل هذه الصور تشكيلاً منطقياً، ترتبط فيه المقدمات بالنتائج، وتقترن فيه الدعوى بالدليل، إليك – على سبيل المثال – مما يقوله "أبو العتاهية" في صروف الدهر:

أحمد الله على كل حال إنما الدنيا كفيء ظلال

إنما الدنيا مناخ لركب يسرع الحث بسرع الزجال

رب مغتر بها قد رأينا نعشه فوق رقاب الرجال

من رأى الدنيا بعين بصير لم تكد تخطر منه ببال

إنما المسكين حقاً يقيناً من غدى يأمن صرف الليالي

فالحياة التي كفن الطلال في روالها . والدنيا التي لا تعدو كونها مقاماً مؤقتاً لركب يحثون المطايا إلى غايتهم، والعمش تحمله رقاب الرجال إلى المثوى الأخير .. كل هذه الصور تعكس بعض نفح البيان القرآني الكريم، ومحاصة في آيات المقارنة بين دار الفناء ودار البقاء كما أن الخلوص من هذه الصور إلى الحث على الزهد في الدنيا، والتذكير بغدر الليالي لا يخلو من سمة برهانية واضحة[1].

ملامح التجديد في الموسيقى الشعرية :

إن المتأمل في الشعر العربي في عهد "بني أمية" يعلم ما أثر به الغناء المستحدث حينذاك في موسيقى الشعر وألحانه، إذ ساد فيه نظم المقطوعات القصيرة في الغزل، وأخذ الشعراء يصنعون موسيقاهم، حتى غدت بعض تلك المقطوعات أنغاماً خالصة، نغمة حلوة بجانب نغمة حلوة، وقد مضى شعراء الغزل يعدلون غالباً عن النظم في الأوزان الطويلة المعقدة إلى النظم في الأوزان البسيطة الخفيفة، فإن ألموا بالأولى جزءوها غالباً حتى تحمل ما يريد المغنون والمغنيات من أنغام مجهورة أو مهموسة، ومن أجل ذلك أكثروا من الخروق أو بعبارة أخرى من الزحافات، إكثاراً نفذ منه "الوليد بن يزيد" إلى استكشاف وزن "المجتث". وصنع بعض المقطوعات فيه، وانتقلت موجة هذا الغناء في أواخر العصر الأموي إلى الكوفة، حتى إذا كان العصر العباسي بلغت في مدن العراق كلّ مكان ينتظر لها من وحدة وقوة[2].

وإذا كانت الحواري ومجالس الطرب قد أثرت في مضامين الشعر العباسي، فلقد كان تأثيرها في موسيقاه أكبر وأعمق، ولعل أهم ما يلاحظ في هذه الصدد أن الشعراء بدأوا يكثرون من الاتكاء على الأوزان القصيرة، والتفصيلات السهلة التي تطرأ عليها أنواع مختلفة من الزحافات والعلل، والتحريفات العديدة، حتى لينتهي بهم هذا التحريف إلى استحداث أوزان جديدة، منها المقتضب والمضارع اللذان سجلهما الخليل، وليس لهما أصل في الشعر القديم. وليس صدفة أن استحداث المجتث في أخريات العصر الأموي – كما

---

(١) في الشعر العباسي – د/ محمد فتوح ص٥١ ٥٢

(٢) دراسات في الأدب العباسي ص٤٥ .

ذكرنا – ثم كذلك في أحضان مجالس الغناء والطرب، وقد أكثر منه العباسيون؛ إذ نجده كثيراً عن "بشار"، و"مطيع بن إياس"، و"أبي العتاهية"، و"أبي نواس" وأضرابهم وأما "المقتضب" فهو – كما ذكرنا – عباسي، ورغم عدم رواجه واتساع استخدامه نجد له نماذج في مثل هذه الأبيات التي يحدثنا "ابن خلكان" أنها كانت أوّل شعر يقوله "أبو نواس" في صباه:

حامل الهوى تعب ... يستخفه الطرب

إن بكى يحق له ... ليس ما به لعب

تضحكين لاهية ... والمحب ينتحب

تعجبين من سقمي ... صحتي هي العجب

كلما انقضى سبب ... منك عاد لي سبب

أمّا المضارع، وهو صنو المقتضب في نشأته العباسية فمن أمثلته: قول "سعيد بن وهب":

لقد قلت حين قربت العيس

قفوا فأربعوا قليلا

فلم يربعوا وساروا

وثمّة وزن ثالث عباسي النشأ والاختراع، وهو "المتدارك". وفيه صاغ "أبو العتاهية" قوله:

هم القاضي بيت يطرب ... قال القاضي لما طولب

ما في الدنيا إلا مذنب ... هذا عذر القاضي واقله

ويظهر غرام "أبي العتاهية" بالتجديد في أوزان الشعر من هذه الحقيقة، التي ترويها

كتب الأدب، وهي أن له أشعاراً لا تدخل في العروض، وهي حقيقة يؤكدها "ابن قتيبة" في "الشعر والشعراء"، وكان لسرعته وسهولة الشعر عليه، وربما قال شعراً موزوناً يخرج به عن أعاريض الشعر وأوزان العرب، بَيْد أن المسألة لم تكن سهولة الشعر وسرعته كما يحسب "ابن قتيبة"، بل كانت – على حد تعبير الدكتور/ شوقي ضيف – هذا الغناء العباسي وما يستلزمه من أوزان وأنغام جديدة(١).

ولم يقتصر أثر الغناء في الشعر العباسي على اختراع أوزان جديدة تناسب خفتها وسهولتها أصوات النغم والغناء، ولكن هذه الأوزان المخترعة لم تلق رواجاً كثيراً بين المتأدبين والشعراء، إنما الذي يجب التنبيه إليه هو تلك الأوزان القصيرة المتجزأة من أوزان طويلة قديمة العهد في الشعر العربي، وقد عاشت هذه الأوزان، وكثُر استخدامها لدرجة أنك لا تكاد تمضي بضع صفحات في ديوان أحدهم، حتى تجد نماذج هذه الأوزان القصار المجزوءة، ومن هذا القبيل تلك الأبيات من "مجزوء البسيط" لـ "أبي نواس"، وهي مثال يشير إلى كثير من قصائده:

يـــا مـــن لعـــين ســـربة ... تفعـــل فعـــل الطربـــة

ومـــن لـــنفس فـــي الهـــوى ... تـــدور دور العربـــة

أنحلنـــي الحـــب فأصـــبحت ... شـــبيه القصـــبة

لا خيـــر فـــي الصـــب إذا ... كـــان غلـــيظ الرقبـــة (٢)

ومهما يكن من أمر فإن ظاهرة تقصير الأوزان لم تكن جديدة في العصر العباسي ولكن الجديد هو إكثار الشعراء من استخدام الأوزان المجزوءة، ومبالغتهم في اختزالها إلى حد أن صار البيت أحياناً من تفعيلتين، كل تفعيلة تكون شطرة، على أننا لا نجد في هذا الوزن سوى نماذج ضئيلة للغاية، منها قصيدة في مدح "الهادي"، التي يقول فيها:

---

(١) الغناء ومذاهبه في الشعر العربي ص٧٠ وما بعدها

(٢) في الشعر العباسي ص١٨ : ٢٠

وعين سربة: سائلة – والقصب: كل نبات ذي أنابيب – غليظ الرقبة: كناية عن الغباء والغلظة.

موســـــــى المطـــــــر غيـــــــث بكـــــــر

ثـــــــم انهمـــــــر ألـــــــوى المـــــــرر

والتفعيلـــة مـــن وزن "مســـتفعلن"، فـــالوزن إذن يمكـــن أن يســـمى بـ "مجزوء مجزوء الرجز"(١).

التجديد في القوافي:

ظل الالتزام بالقافية الموحدة هو المبدأ العام السائد، إلا من محاولات محدودة لدى بعض الشعراء في التخفف من حدة تكرارها الصوتي – أي تكرار حرف الروي فيها – فكانت القصائد المزدوجة، التي يقفي فيها كل بيت بقفية مستقلة، تبرز في نهاية عجزه ونهاية صدره على السواء، ولكن دون التزام بتكرارها في سائر أبيات القصيدة، وكان من هذه المحاولات كذلك كتابة "المخمسات"، وفيها تقسَّم القصيدة إلى وحدات، كل وحدة من خمس شطرات، ولكل وحدة قافية مستقلة تتكرر في نهاية شطراتها الخمس، دون التزام بها في الوحدات الأخرى.

وبما كانت المحاولة الطريفة حقاً لكسر حدة القافية – على الرغم من الإبقاء عليها – هي تلك التي تطالعنا في أشعار "أبي العتاهية"، و"ابن المعتز"(٢).

فمن رباعيات "أبي العتاهية" في الزهد :

الموت بين الخلـــق مشـــترك لا سوقـــة تبقـــى ولا ملـــك

ما ضر أصحاب القليـــل ومـــا أغنى ذوى الأملاك مـــا ملكـــوا (٣)

(٣)

(١) في الشعر العباسي الرؤية والفن – د/ عز الدين إسماعيل ص٤١٨ وما بعدها.
(٢) ينظر: في الشعر العباسي الرؤية والفن ص٥٨.
(٣) دراسات في الأدب العباسي ص٥٩.

أغراض الشعر العباسي (القديمة، والجديدة) وأشهر شعرائها:

دونت العلوم المختلفة: من شرعية، ولسانية، وعقلية – وترجم غيرها من اللغات الأجنبية، وظهرت الردود القوية المفحمة للشعوبيين والمتزندقة وأصحاب الآراء المنحرفة، ودعاة الانحلال والخلاعة والشرب والمجون، وبجانب هذا انتشرت دعوات الوعظ والإرشاد عن طريق التزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة، كما ظهرت أقلام أحسنت وصف الطبيعة بجمالها وحسنها، والحضارة بقصورها وما حوت من أثاث، ورياش ورسوم، وحدائق، ورياض، وأنواع اللعب إلى غير ذلك من آيات الحضارة، ومباهج الحياة.

ومما سبق يتبين لنا ما أضافته الحضارة العباسية من أغراض على أغراض الشعر الموروثة، فلم يكن الشعراء قبل العصر العباسي يعرفون وصف البرك، والقصور والحدائق، والرياض، وغير ذلك مما أنشأته الحضارة العباسية، كما أنهم لم يعرفوا شعر الفلسفة، ولا شعر الزهد، ولا الشعر الصوفي، ولا المقطوعات التعليمية، ولا الشعر الماجن، كالغزل بالمذكر – كما سنعرف بالتفصيل فيما يأتي – كما تطورت الأغراض الموروثة إلى ما يتفق وروح العصر وثقافته.

فهناك من الأغراض ما قلَّ حديث الشعراء فيه، مثل: الشعر السياسي، وبخاصة بعدما ضعف شأن الأحزاب السياسية، وكالغزل العذري الذي لم يبق له مجال متسع إلا قليلاً في هذه البيئة، وهناك أغراض موروثة نمت وتطورت وازدهرت، كالغزل العادي الذي أصبح صناعة متكلفة قلّما يصدق في وصف العواطف والانفعالات، وأضافوا عليه غزلاً جديداً كان أصدق تصوير لنفوسهم وبيئتهم.

وكالهجاء الذي زاد قبحاً، وعظم حظه من الإقذاع والفحش، وكالمدح الذي كثرت فيه المبالغة، واشتد فيه الإسراف، ونزل به الشعراء حتى اتخذوه وسيلة للكسب

في غير تعفف، ولا كرامة ولا حياء.

وأشد الفنون الشعرية، وأكثرها نمواً في هذه العصر: المجون، ووصف الخمر، وقد دعا إلى نمو هذا الفن، وتهالك الناس عليه ما حدث من فساد الأخلاق، واختلال الروابط الاجتماعية، وتسلط الإماء على الحياة المنزلية.

ومن الأغراض التي أصابها التطور أيضاً: فن الوصف، حيث غيروا في موضوع هذا الوصف – كما سبق – بسبب الحضارة التي غرقت فيها الدولة في هذا العصر.

ومن هذه الأغراض التي تطورت أيضاً: فن الرثاء، فقد خرج الشعراء فيه عن المألوف من البكاء على الميت، والتفجع عليه، وإبداء الألم الشديد لفقده أو التأبين – إلى الرثاء الذي يُكثر فيه الشاعر من الحديث عن الحياة والموت، وفلسفة الفناء والبقاء وصروف الزمن(١).

أولا: الأغراض التقليدية:

١ – المدح: أما المدح فقد تبوّأ المكان الأعظم في الشعر العربي كلّه وفي العصر العباسي خاصة، فلقد كان هذا العصر عصر فتن وثورات داخلية وحروب خارجية. ومن هنا كانت الحاجة ملحّة إلى قصيدة المديح؛ لتقوم مقام الصحافة في تسجيل الأحداث الكبرى التي ينهض بها الخلفاء، وقد كانت المدائح في الماضي – على جودتها – تتوخّى السهولة في اللفظ والمعنى، من مثل: بيت "زهير" المشهور:

إن تلق يوماً على علاته هرماً تلقى السماحة منه والندى خلقاً

وكان المديح ذا مكانة ممتازة في الشعر الجاهلي، وكان الملوك يُغدقون على الشعراء الهبات، ويجزلون لهم العطاء مقابل هذه المدائح، وقصص "النابغة" مع "النعمان"، و"زهير" مع "هنرم بن سنان" و"الحارث بن عوف" مشهورة

---

(١) محاضرات في تاريخ الأدب العباسي – د/ على جاد الحق ص٢١ : ٢٢ بتصرف.

لا تحتاج إلى تكرار.

ولم يكن للمدح ذلك الشأن الخطير في عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، فلم يأبهوا بالمدح أو يثيبوا عليه. أما في العصر الأموي فقد اتَّسعت البلاد الإسلامية، وتحضَّرت شيئاً ما. وأصبح قصر الخليفة بدمشق له شعراؤه الذين ظهروا في صورة واضحة وقوية، ومن أشهر الصفات التي كان يضفيها الشعراء على ممدوحهم: الكرم والشجاعة.

ولم يَعُد شاعر المدح في العصر العباسي الأول يقتصر على إلقاء الشعر بين يدي الممدوح. بل تعدّاه إلى التراسل بالشعر، وأخذوا يتفننون في المدح، ويجدون في اختراع المعاني والتصرف فيها. وظهر أثر الثقافة في شعر المديح عندهم. كما ظهرت المبالغات في مثل قول "أبي نواس" في "الرشيد":

وأخفت أهل الشرك حتى إنه ... لتخافك النطف التي لم تخلق

وقول "البحتري" في "المتوكل":

ولو أن مشتاقاً تكلف فوق ما ... في وسعه لسعى إليك المنبر

وقول "أبي دلامة" في "المنصور":

لو كان يعفو فوق الشمس من كرم ... قوم، لقيل: اقعدوا يا آل عباس

وكقول "أبي تمام" في "المعتصم":

خليفة الله جازى الله سعيك عن ... جرثومة الدين والإسلام والحسب

نصرت بالراحة العظمى فلم ترها ... تنال إلا على جسرين من التعب

وكانت تبدأ قصيدة المدح بالأطلال، ثم وصف الراحلة والرحلة. كما كانت في العصور السابقة عند قليل من الشعراء، حتى كثرت موجة المجون، فجعلتهم إلى وصف الخمر بدلاً من الأطلال. كما وجدنا "بشاراً"، و"مسلم بن الوليد"، و"أبي نواس"(١).

وحاول بعضهم أن يترك الحديث عن الأطلال المهجورة إلى قصور الحاضر المأنوسة ومعشوقه

---

(١) دراسات في تاريخ الأدب العباسي ص٤٣ : ٤٤ بتصرف.

تحرّك عن وصف الصحراء ومسالكها وسمومها إلى وصف الرياض في الحضرة ومناظرها.

٢ – الهجاء : وهو ذكر المثالب ، ونفي الفضائل بأسلوب تهكمي، وقد كان في الجاهلية أقرب إلى النهج السوي : حيث كان يقصد به الحط من قبيلة أو عشيرة. وقلّما يقصد به تحقير فرد بعينه، وتحول في صدر الإسلام إلى الرمي بالكفر والإعراض عن الذكر في عصر "بني أمية" انقلب إلى سب فاحش، وإقذاع مُرّ على يد الفحول: "جرير"، و"الفرزدق"، و"الأخطل" – ثالوث فن النقائض.

ولما جاء العصر العباسي تطورت معالم الحياة، ولم يعد أساسها العصبيات القبلية كما كان الشأن في العصر الأموي، ولكن الهجاء لم يضعف ، فقد انتشرت في المجتمع المفاسد والفجور، وضعف الوازع الديني، وقد اتّجه الهجاء إلى السخرية والتهكّم، وسلّط الشعراء أقوالهم على البخلاء، وتناولوا الأمراض الاجتماعية التي تفشّت في المجتمع ؛ للتنفير منها:

- ومن ذلك قول "أبي نواس" يهجو "الفضل":

خبز المفضل مكتوب عليه ألا ... لا بارك الله في ضيف إذا شبعا

إني أحذركم من خبر صاحبنا ... فقد ترون بحلقي اليوم ما صنعا

- وقال "ابن الرومي" يهجو "عنيزة" المغنية :

شاهدت في بعض ما شاهدت ... مسمعة كأن يومها يومان في يوم

تظل تلقى على صم مجلسها ... قولاً ثقيلاً على الأسماع كاللوم

لها غناء يثيب الله سامعه ... ضعفي ثواب صلاة الليل والصوم

وقول "حماد عجرد":

وأعمى يشبه القرد ... إذا عمي القرد

وقول "ابن الرومي":

فصرت أخادعه وطال قذاله ... كأنه متأهب أن يصفا

وكأنمـــا صـــفعت قفـــاه مـــرة وأحـــس ثانيـــة لهـــا فتجمعـــا

وهذا الهجاء – على ما ترى فيه من مخالفات تأباها الروح الإسلامية – جديد أملته الحضارة، فقد أضاف الشاعر إلى قذارة الجسم قذارة الخلق.

٣ – الغزل : ويقال له "النسيب"، وهو نظم الشعر في وصف النساء، والتودد إليهن أو وصف حالة العشق وما إلى ذلك، وهو من أهم أغراض الشعر في كل عصر، فقد درج الغزل الجاهلي على وصف جمال المرأة، واستحال في الإسلام إلى وصف صدّها وهجرها، والشكوى منها كما ترى عند العذريين.

وفي العصر العباسي ابتعد كثيراً عما كان عليه فيما مضى، فالعصر عصر مفاتن ومفاسد، وحواري ورقص، وموسيقى وغناء، فاندفع الناس إلى الفساد الخلقي، والعبث واللهو، وذاعت أحاديث العشق والصبوة، ففتحت أبواب الغزل الإباحي الذي يدفع إليه الجشع الجسدي، والذي لا يدع فارقاً بين الإنسان والحيوان، وهذا الغزل لم يعرفه العرب فيما مضى، نعم عرفوا الغزل الصريح، ولكنهم لم يبلغوا مبلغ العباسيين من الجهر بالفسوق.

٤ – الوصف: وصف العرب كل ما وقعت عليه عيونهم، من حيوان، وطير، وسباع وأوابد، ووحوش، وحشرات الأرض، ووصفوا أيضاً السماء، ونجومها وكواكبها، وبروقها، وأمطارها، ووصفوا الديار والأطلال، ووصفوا جمال الإنسان وأخلاقه، وطباعه، وفي العصر الإسلامي اتجهوا إلى وصف الأعمال الإسلامية في السِّلم والحرب، والفتوح والمغازي، كما اتجه في العصر الأموي إلى وصف الحروب الخارجية، والمعارك الخارجية، ومظاهر الترف النسبي.

أما في العصر العباسي فإن العقول قد خطت خطوات واسعة بسبب الثقافات العميقة، والآفاق الواسعة، فوصفوا الرياض، والحدائق، والبساتين، ووصفوا أدوات الزينة، وأدوات اللعب، وأدوات الشرب.

يقول "ابن المعتز" في الهلال:

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمول من عنبر

ويقول "أبو تمام" في وصف الخمر:

يخفي الزجاجة لونها فكأنها في الكف قائمة بغير إناء

٥ – الرثاء : في الشعر العربي في جميع عصوره مرات تُعَدّ من أجلّ وأفخم ما في الأدب العربي، ويروى الرواة أن بعض العرب سُئل : ما بال أفضل أشعاركم الرثاء؟! فأجاب: لأنا نقولها وقلوبنا موجعة، أي لأنها صادرة عن عاطفة حارة لا تكلُّف فيها.

وكان الرثاء في الجاهلية يقوم على ذِكر المناقب، واستعظام المصيبة في الميت، وضرب الأمثال بفناء الملوك والممالك. وهذا أمر طبيعي، ولما جاء الإسلام كانت الأسوة بالرسول ﷺ وخلفائه الراشدين والأنبياء السابقين، واستمر على هذه الحال حتى العصر العباسي فنشط نشاطاً كبيراً ، إذ لم يمت خليفة أو وزير ولا قائد إلا أبّنوه تأبيناً رائعاً.

وقد صوّروا في القوّاد بطولاتهم، ومحنة الأمة والجيوش الإسلامية في استشهادهم وخير ما يمثّل ذلك مراثي "أبي تمام" في "محمد بن حميد الطوسي"، ومنها:

توفيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السفر

وما كان إلا مال من قل حاله وذخرا لمن أمسى وليس له ذخر

ومن طريف ما يروى من رثاء هذا العصر :

أرادوا ليخفوا قبره عن عدوّه فطيب تراب القبر دل على القبر

واتّخذ الرثاء في العصر العباسي اتّجاهات عدّة :

١ – البكاء والحزن الشديد على الفقيد ، والتفجّع عليه ، كقول "مسلم بن الوليد" في رثاء زوجته :

بكاء وكأس كيف يتفقان سبيلاهما في القلب مختلفان

٢ – التأبين : أي مدح الشخص بعد موته، والثناء عليه ، كتأبين

"محمد بن حميد الطوسي".

٣ – التعزية : وهذا اللون من الرثاء يكون عادة جزءاً من مرثية تشتمل على عدة نواح

٤ – المراثي الحكمية : وهي التي يكثر فيها الشاعر من التحدث عن الحياة والموت وفلسفة الفناء والبقاء، وصرف الزمن.

أما عن الأغراض المستحدثة : فالغزل بالمذكر، والمجون، والزهد، والشعر الفلسفي والشعر التعليمي.

الموضوعات المستحدثة:

١ – الغزل بالمذكر : يحمل وزر هذا الإثم جماعة من مُجّان الشعراء، وفُسّاقهم ومخموريهم ظهروا في مطلع العصر العباسي، على رأسهم "بشار بن برد"، و"أبو نواس" و"مطيع بن إياس"، و"حماد عجرد"، و"يحيى بن زياد"، وكانوا يشربون الخمر، ويتغزلون الغزل المكشوف الماجن بالجواري، والغزل الدّنس بالغلمان متحرّرين من كل خُلق وعُرف ودين، ويرجع السبب في ازدهار هذا الغرض إلى :

١ – كثرة الشعراء من الفرس، الذين كانوا يظهرون الإسلام، ويبطنون الإلحاد والزندقة.

٢ – اضطراب النفوس، وتسلُّط الشك على العقول من كثرة المقالات والمناظرات ولشيوع المذاهب الفلسفية، مما جعل كثيرين يستهزئون بقيم المجتمع الإسلامية.

٣ – كثرة الرقيق، ودور النخاسة التي كانت أسواقاً للعبث، وهو عبث صحبه غير قليل من الفجور، حتى لُيعدّ الغزل بالمذكر – عند "أبي نواس" وغيره – انحطاطاً خُلقياً شنيعاً.

٤ – كثرة اتخاذهم للجواري والإماء، وتسلطهن على الحياة المنزلية مما أدى إلى اختلال الروابط الاجتماعية، ومن هذا الغرض قول "مطيع بن غياس" :

اخلع عذارك في الهوى ... واشرب معتقة الدنان

لا يلهينك غير ما تهوى ... فإن العمر فان

وهذا النوع لم يكن معروفاً لدى العرب قبل ذلك، فهم قد عرفوا الغزل الصريح

ولكنهم لم يبلغوا مبلغ العباسيين في الدعوة إلى الفسق والصراحة المزرية، وما أنشده الشعراء في هذا الغرض الماجن يمسك القلم عن تسطيره؛ حتى لا يدنس بهذا العهر والفجور، فتسطيره عار في حق الأدب، فضلاً عن الدين، وربما كان أخف بيت عهراً: قول "أبي نواس" في راهب:

جادلتـــه فـــي قُبلـــة فأجـــابني لا والمســـيح وحرمـــة النـــاقوس

٢ – الزهد والتصوّف: لقد كان هذا الغرض الشعري "الزّهد والتّصوف" بمثابة ردّ فعل للغرض الذي نشأ في الدولة العبّاسية، وهو "الإباحة والمجون"، حيث إن نواميس الحياة تقرّر أن نُزُوع طائفة إلى الغلوّ والإفراط يقتضي نشوء طائفة أخرى تكون مُضادّة لها في الاتجاه، وذلك مثل ما يقرّره علماء "الميكانيكا" أنّ لكلّ فعل ردّ فعل مُساوٍ له في المقدار مُضادّ له في الاتّجاه، فمثل هذا القانون ينطبق تماماً على ما أومأنا إليه آنفاً من أن الطّائفة التي كان فيه غُلوّ وإفراط، نشأت طائفة أخرى كانت مضادّة لها في الاتّجاه. ألا وهو الغرض الذي يدعى "الزّهد والتصوّف".

وإذا كانت حانات الخمور، ومقاصف المجون قد ألفت بين أهل الفسق، فإن المساجد قد اكتظت بالوعّاظ والنُسّاك. وأهل الحديث والورع، ومن حولهم العامة تسمع حديث الزهد في هذه الحياة القصير أجلها، وإن طال، وإنه ينبغي أن تكون دار زاد لدار معاد، وأن الناس مسافرون، وعما قليل راحلون، فإما عذاب مستديم، وإما نعيم مقيم[1].

وقد انتشر شعر الزهد. وكان أكثر اتّصالاً بحياة الجماهير من شعر المجون؛ لأنها لم تكن تعرف ترفاً ولا ما يشبه الترف، وكانت تعيش حياة دينية مستقيمة، فإذا كان كتاب الأغاني يفيض بالمجون. فإن كتب الطبقات التي ترجمت للفقهاء والمحدّثين تفيض بأخبار العبّاد والزهّاد، وقد تعهم كثير من الشعراء يردّدون نفس النغم، حتى شعراء المجون من باب منهم إلى رشده ترك حياة المجون، وانطلق لسانه بمعاني الزهد.

---

(١) العصر العباسي الأول – د/ شوقي ضيف.

- فهذا "أبو نواس" يقول:

وما الناس إلا هالك وذو نسب في الهالكين عريق

إذا امتحن الدنيا تكشفت له عن عدو في ثياب صديق

وقول "مالك بن دينار" المحدّث الناسك:

أتيت القبور فناديتها فأين المعظم والمحتقر

وأين المدل بسلطانه وأين المزكي إذا ما افتخر

تروح وتغدوا بنات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور

فيا سائلي عن أناس مضوا أما لك فيما مضى معتبر

٣ – الشعر التعليمي: يذهب المشتغلين بالأدب إلى أن فن الشعر التعليمي كان مما استحدث الشعراء العباسيون، ولم تكن له أصول قديمة، وأن الذي دفع إليه هو رقي الحياة العقليّة في هذا العصر، وليس للعرب سبق في مجاله.

وهذا ليس بصحيح، فإن العرب سبقوا إليه وعرفوه في العصر الجاهلي، ورأوا أنه ينبو عن ذوق الشعر، فلم يرد إلا نادراً في شعرهم؛ لأنهم لم يكونوا يستحسنون أن يسلك شعراؤهم هذه المسالك التعليمية، وخير دليل على أن هذا الفن لم يلق قبولاً لدى الأذواق العربية: ما يُروى من أن "الراعي النميري" أنشد قصيدة في "عبد الملك بن مروان" فلما بلغ قوله:

أخليفة الرحمن إنا معشر حنفاء نسجد بكرة وأصيلاً

عرب نرى لله في أموالنا حق الزكاة منزلاً تنزيلاً

فقال "عبد الملك": ليس هذا شعراً، هذا شرح إسلامي وقراءة آية، و"للأخنس بن شهاب" في العصر الجاهلي شعر تعليمي تاريخي، وكان يقيد فيه وقائع "حرب البسوس" بين قومه "تغلب" و"بني بكر".

ومن الشعر التعليمي في العصر العباسي ما نظمه "إبان اللاحق" و"أبو العتاهية" الذي

نظم مزدوجة في الحكمة منها :

وخير العيش ما كان الكفافا ... من اتقى الله رجى وخافا

ومن ذلك قول "إبان اللاحقي" في منظومته الفقهية :

هذا كتاب الصوم وهو جامع ... لكل ما جاءت به الشرائع

فرمضان شهر معروف ... وصومه مفترض موصوف

٤ – الشعر الفلسفي: وهو الشعر الذي يحمل آراء عقلية وفلسفية

ومن شعرائه "أبو تمام" الذي يقول :

صاغهم ذو الجلال من جوهر المجد ... وصاغ الأنام من عرضه [١]

وقوله :

قد غرستم المودة والشحناء ... في قلب كل قار وباد

أبغضوا عزبكم وردوا نداكم ... فقروكم من بغضة ووداد

لا عدمتم غريب مجد ربقتم ... في عراه توافر الأضداد [٢]

ومن الشعر الفلسفي : ما قاله "ابن الرومي" يمدح "إسماعيل بن بلبل" :

قالوا أبو الصقر بن شيبان قلت لهم: ... كلا لعمري ولكن منه شيبان

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف ... كما علت برسول الله عدنان

تسمو الرجال بآباء ، وأونة ... تسمو الرجال بأبناء وتزدان [٣]

رواية الشعر ورواته :

كانت رواية الشعر منذ العصر الجاهلي وسيلة مهمة لشيوعه ونشره، وكان لكلّ شاعر جاهلي كبير على وجه التقريب راوية ، يصحبه ويروى عنه أشعاره، ويشرها بين

---

(١) الصنع البديعي في اللغة العربية – د/ أحمد إبراهيم موسى ص٩٦ .
(٢) المرجع السابق ص٩٧ .
(٣) المرشح للمرزباني ص٢٨١ .

الناس، وربما احتذى آثاره الفنية من بعده، وزاد عليها من عنده، وكان هؤلاء الرو يعتمدون في الغالب على الرواية الشفوية، ولا يستخدمون الكتابة إلا نادراً، وعن الرو كانت تنشر الدراية بالشعر في أوساط أوسع وأشمل. بعد أن يذيع في قبيلة الشاعر نفسه.

ولم يبدأ جمع الشعر العربي إلا في عصر الأمويين، وإن لم يبلغ هذا الجمع ذروته إلا على أيدي العلماء في عصر العباسيين[1].

ولا شك أن الرواة كان لهم دور كبير في الحفاظ على الشعر، فقد حملوا الشعر الجاهلي إلى عصر التدوين، وحافظت القبائل عليه كما حافظ كثير من الأفراد، وخاصة الشعراء والرواة، وبذلك أسلموه للأجيال التالية، وإن كان قد شابه شئ من الانتحال والوضع.

وفي نهاية العصر الإسلامي، ومطلع العصر العباسي نشأت طبقة من الرواة المحترفين الذين يتخذون رواية الشعر الجاهلي عملاً أساسياً لهم ..

وأهم هؤلاء الرواة "أبو عمرو بن العلاء"، و"حماد الراوية"، و"خلف الأحمر" و"محمد بن السائب الكلبي"، و"المفضل الضبي".

وقد استقوا روايتهم من القبائل والأعراب البدو، وكان بين البدو أنفسهم من هاجر إلى الكوفة والبصرة، حيث هؤلاء الرواة العلماء ليهديهم لما يريدون.

ومن أسباب الاهتمام بجمع الشعر وروايته: الاستشهاد بالشعر الجاهلي في شرح ألفاظ القرآن الكريم، ووضع قواعد اللغة، على أن هاتين الغايتين سرعان ما انفصلتا عن عمل الرواة، وأصبحوا يقصدون لجمع هذا الشعر ذاته، ومن أجل نفسه..

وقد كان في الكوفة مدرسة للرواة، وأخرى في البصرة، كما يذكر الدكتور/ شوقي ضيف، فلا نكاد نمضي في العصر العباسي حتى يكون هؤلاء الرواة مدرستين متقابلتين: مدرسة في الكوفة، ومدرسة في البصرة، وعُرف الأولون بأنهم لا يتشددون في رواياتهم تشدُّد الآخرين، ومن ثم تضخمت رواياتهم، ودخلها موضوع ومنتحل كثير، ولعل من

---

(١) تاريخ الأدب العربي - كارل بروكلمان ١/٦٤ : ٦٥.

الظريف أن تعرف أن الكوفة عرفت في الحديث النبوي بالوضع والانتحال أيضاً.

يقول أبو الطيب اللغويّ: "والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه في البصرة، ولكن أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله. وذلك بيّن في روايتهم ونقد لهم البصريون كثيراً وبادلهم الكوفيون نفس التنديد، ولكن إذا صفينا التشكيكات والتنديدات اتّضح لنا أن رواية البصرة في جملتها أوثق من رواية الكوفة، وليس معنى ذلك أن رواية الكوفة في الجملة كانوا متهمين بخلاف رواة البصرة، فإن الطرفين جميعاً متهمون، وموثقون أحاطوا روايتهم بسياج من الأمانة والدقة والتحرى.

ربما كان السبب الحقيقي في تقدم البصرة على الكوفة في الرواية أن رأس رواتها وهو "أبو عمرو بن العلاء" كان أميناً، بينما كان رأس رواة الكوفة "حماد" وكان متهماً كثير الوضع.

ومن رواة الكوفة الذين عاصروا "حماداً" واشتهروا بالوضع "برزخ العروضى" وكان من أكذب الناس في رواية الشعر، ومثله "جناد"، وكان يختلط في الأشعار، ويصحف.

وكان في الكوفة رواة ثقات، على رأسهم "المفضل الضبى" صاحب "المفضليات" وأجمع الرواة: الكوفيون والبصريون على توثيقه، وكان عالماً علماً وثيقاً بالأشعار والأخبار.

أما في البصرة وفي الحقبة التي تلت "أبا عمر بن العلاء" فإنا نجد لها "خلفاً الأحمر" الذي تسدد إليه سهام الاتهام، ولم يكن يقلّ عن "حماد" في معرفته بأشعار العرب وأخبارهم. والأصمعي يقوم في البصرة مقام "المفضل الضبى" في الكوفة.

ومن رواة القرن الثالث وعلى رأسهم "أبو عمرو الشيبانى"، و"ابن الأعرابي" الكوفيان، وآخرون مثل: "محمد بن حبيب" و"ابن السكّيت"، و"الثعلب". وانتهت الرواية في البصرة إلى "ابن سعيد الحسن بن الحسن السكرى" المتوفي سنة ٢٧٥هـ، وإليه الفضل في جمع كثير من الدواوين الجاهلية، وهو يجمع بين الروايتين: البصرية، والكوفية [١].

---

(١) تاريخ الأدب العربى، العصر العباسى - د/ شوقى ضيف ص١٥٣.

مدارس الشعراء المحدثين

مدرسة "بشار بن برد" وخصائصها:

هو "أبو معاذ المرعث العقيلي"، ولد "بشار" ضريراً بالبصرة، لمولى إيراني، كان يفتخر بأنه من أولاد ملوك "خراسان"، وقيل: "طخارستان"، كان أبوه قدم إلى البصرة من الأسرى الذين أسرهم "المهلب بن أبي صفرة" لما ولي "خراسان"، وأعتقت "بشار" مولاته، وكانت عربية من أشراف البصرة، فبقي في هذه المدينة. ولكنه كان يزور بعض الأمراء ويمدحهم ومن ذلك زيارته "لسليمان بن هشام بن عبد الملك" وهو في "حران"، وقيل: إن "بشارا" صحب "واصل بن عطاء" مؤسس مذهب الاعتزال. كما قيل: إنه كان يفضّل مذهب المجوس. الذي دان به آباؤه، فقال بعض الأدباء: إنه فاخر "جريراً" وهجاه بأشعار كثيرة؛ أملاً في أن يجيبه "جرير" فيشتهر ذكره، وهجا "بشار" كثيراً من الشعراء وغيرهم، فكثر أعداؤه. ولم يجترئ عليه أحد، ولكنه بعد أن مدح "المهدي" فاستحسن مدائحه، ونهاه عن ذكر النساء حملته جرأته على هجاء الخليفة "المهدي" ووزيره، فعمد الخليفة إلى البصرة وأمر بإحضار "بشار"، وضربه سبعين سوطاً، وظل "بشار" يُضرب حتى مات سنة ١٦٧هـ.

وكان "بشار" كثير التصرف في فنون الشعر. وهو يصور الأشياء بقوة خاصة به ما تتركه حاسة السمع والشم من آثار النفس.

وكان غزله قوي التأثير حتى نهاه "المهدي" من أجل ذلك عن التشبيب بالنساء، وتتجلى قوته في شعر الهجاء، يقول عنه "ابن المقفع": كان شاعراً مجيداً، مفلقاً، ظريفاً محسناً. خدم الملوك، وحضر مجالس الخلفاء، وكان يمدح "المهدي"، ويأنس به، ويدنيه ويجزل له في العطايا. وكان صاحب صوت حسن. وكان إذا حضر "المهدي" في مجلس مع جواريه بعث إليه؛ لأجل المسامرة، والمحادثة. وكان "بشار" يُعدّ من الخطباء اللغاء الفصحاء. وله قصائد وأشعار كثيرة، وقد أثرت في حياة "بشار" وفي شخصيته الأدبية عوامل متشابكة. فقد كان مولى، وكان يحس بعمق أنه قن ابن قن. وأنه من أسرة فقيرة متخلفة في المجتمع. فانطوى على مرارة ولّدت فيه ميلاً قوياً إلى العدوان، وقد ورث عن

جنسه الفارسي مزاجاً حاداً، واندفاعاً شديداً نحو المتع الحسية، وضاعف ذلك عنده أنه كان مكفوفاً، فغدت وسيلته إلى الجمال والإحساس به حسية وسمعية ولمسية. واندمج في هذه المكونات الشخصية والجنسية مكون البيئة، وما كانت تكتظ به من دور الرقيق والجواري والإماء. واشتركت الثقافات الأجنبية والعربية في تكوين شخصية "بشار".

والمهم أن "بشاراً" كان واقفاً على ثقافة عصره ومعارفه الدخيلة، وكان لها تأثير واسع فيه، وربما كان أهم ثقافة أثرت في شعره الثقافة العربية، التي هيأته للتفوق في الشعر وساعدته على ذلك نشأته اللغوية، واختلافه إلى المربد، وأيضاً خروجه إلى البادية[1].

خصائص شعره:

أجمع معاصروه ومن جاء بعدهم على أنه هو الذي نهج للعباسيين طريقتهم الجديدة، وهي طريقة كانت تعتمد اعتماداً شديداً على الأصول التقليدية للشعر القديم حتى لتبدو فيه نزعة محافظة، وخاصة في مدائحه، فإن الإطار فيها لا يختلف عن الإطار القديم إلا قليلاً.. ولا يعني ذلك أنه كان عاتياً في مديحه عن عصره، فهو يزاوج بين الماضي والحاضر، يصف الأطلال ولكنه بذوق حضري جديد، فيه رقة، وفيه دقة، وفيه استنباط المعاني وتوليدها.

إنه ربيب بيئة المتكلمين، وقد أخذ عنهم قدرتهم في بسط الأدلة، وتفصيل الأفكار وتفريعها، وتتشعيب المعاني وتشقيقها، كما أخذ عن الفرس أمثالهم، وحكمهم، وتحول إلى معاني الشعر الجاهلي يستخلص منه ما لا يحصى من خواطر وبُعد، فلقد كانت صنعة "بشار" في شعره تقوم على الموازنة الدقيقة بين العناصر التقليدية في الشعر العربي، والعناصر التجديدية المستمدة من الحضارة والثقافة المعاصرة، ثبت "بشار" هذه الطريقة بحيث أصبحت منهجاً عاماً للشعراء من بعده، بحيث عُدّ بحق زعيم المجدّدين.

ويقول الدكتور / "أحمد إبراهيم موسى" عن مدرسة "بشار": "اتسمت هذه المدرسة بالإكثار من ألوان البديع بالنسبة إلى القدماء، وبالسذاجة والسهولة، والقرب من صدق

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص١٥٠ وما بعدها.

الفطرة، وسلامة السليقة بالنسبة إلى متكلّفي البديع من المحدثين، كما امتازت عن العهد وإلى هذا فقد بدا الطابع الثقافي على ألوان البديع التي استخدمها رجال هذه المدرسة بدواً تعتبر حديثاً بالنسبة للأقدمين، وإن كان قليلاً خفيفاً مشهوراً بالنسبة إلى من جاء بعده من المحدثين"[1].

مدرسة "أبي نواس" ومذاهبها في الشعر:

هو "الحسن بن هانئ"، ولد بالأهواز سنة ١٣٩هـ، وكان أبوه مولى لآل الحكم بن الجراح من بني "سعد العشيرة" اليمنيين. قدم إلى هذه البلدة مع جند "مروان بن الحكم" ومات "هانئ" وابنه صغير، فانتقلت أمّه إلى البصرة وهو ابن ست سنين. فأسلمه إلى الكتاب، وقد حذق "أبو نواس" الفارسية عن أمّه. حتى إنه استخدم مثلاً فارسياً في شعره وقد نشأ بالبصرة فلم يطب عيشه بها، فقد كان يشعر فيها بأنه عبد رقيق، لا حر طليق فرحل إلى "الأهواز"، ثم إلى "الكوفة"، ثم إلى "بغداد"، وذكره "ابن إسحاق الموصلي" للرشيد. فأذن له بالدخول عليه، ومدحه "أبو نواس"، ولكنه برغم ذلك لم يلق من الخليفة كل ما تماد، بل وجد ذلك عند "البرامكة"، الذين خصُوه بحظوة كبيرة، وفي سنة ١٨٧هـ رحل إلى "مصر"، فمدح والي الخراج بها "الخطيب"

ويرى الدكتور / "طه حسين" أن "أبا نواس" لم يخلص في مدح الرشيد والبرامكة إخلاصه في مدح "الخطيب".

وبعد وفاة "الرشيد" رجع إلى بغداد، ويبدو أنه لقي حظوة في قصر الخلافة مدة حكم "الأمين"، وإن حسه "الأمين" زمناً قصيراً لخلاعته.

واختلف الرواة في سبب وفاته وتاريخ ذلك. فقيل: إنه هجا "بني نوبخت" فألبوا عليه مواليه أن يضربوه، فمات، وقيل: إنه مات في السجن. وكان قد حُبس لشعر قاله فيه فسق

---

(١) الصبع البديعي في اللغة العربية ص٦٣ - ٦٤ - د/ حمد ابراهيم موسى - دار الكتاب العربي سنة ١٩٦٩م.

سنة ١٩٠هـ. وقيل: كانت وفاته بين سنة ١٩٥هـ، وسنة ١٩٩هـ [١].

وقد أجاد "أبو نواس" فن الخمريات، ودعا إلى ترك المقدمة الطللية، وامتاز بفحشه ومجونه، وصراحة قوله، وصدقه في التصوير، ويعد ثاني "بشار" في منزعه لفظاً ومعنى.

وقال الجاحظ: "بشار" و"أبو نواس" معناهما واحد، والعدة اثنان: "بشار" حل من الطبع بحيث لم يتكلف قولاً، ولا تعب في عمل شعر، و"أبو نواس" حل من الطبع، بحيث يصل شعره إلى القلب بغير إذن.

وكان مشهوراً بالتفتح، وهو – على رقته ومجونه – جزل الألفاظ، فخم الأسلوب كثير الغريب، ولقد ابتدع في الشعر أبناء أنكرها العقلاء، وأخذها عنه الشعراء، مثل: استهتاره في الفجور، واسترساله في المجون، ونقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى أوصاف المذكر، ولا شك أن هذه الطريقة التي شرعها هذا الشاعر الماجن كانت جناية على الأدب ووصمة في تاريخ شعر العرب [٢].

خصائص شعره:

إن الشاعر "أبو نواس" في مكوّناته الشّخصية يقترب من الشاعر "بشّار بن بُرد". حيث إنّه ألمّ إلماماً كبيراً بثقافات عصره، كما أنه ورث عن "الفرس" حدّة المزاج، وأخذت البيئة الماجنة تُذكي أُوار هذه الحدّة بكل ما أخذه عن الشاعر "والبة". وأضرابه، وكان ينوّع المعاني في الغزل، وذلك حين يتغزّل في شعره، وكيف يستمد من أوعية القديم في "الحنين" والصد والإعراض، والدّلال، وما تتلألأ فيه خواطره، وتتألّق فيه أحاسيسه، وكان ينحوا في غزله منْحىً سهلاً حتى لتصبح بعض غزلياته أسلس على اللسان من الماء العذب، وكان يتوفر في مديحه وشعره الرسمي، ويختار له إطاراً جزلاً قويّاً متيناً، يقدّم له بوصف الصّحراء على طريقة القدامى، وكان يجنح في مديحه إلى "المبالغة والإسراف" على نفسه في الارتفاع بالممدوحين عن البشر، وبذلك كان من أوائل من أعدّوا لاتّساع المبالغة في المديح العباسي

---

(١) تاريخ الأدب العربي – بروكلمان ٢/٢٥ وما بعدها.
(٢) تاريخ الأدب العربي – أحمد حسن الزيات ص٣٩، ٣١٠.

ومضى الشّعراء من بعده يبالغون في المديح، حتى إنهم رفعوا ممدوحيهم إلى مرتبة الآلهة.

وواضح مما قدّمنا أنّ صناعة الشّعر لدى الشاعر "أبي نُواس" كانت تعتمد اعتماداً شديداً على الإطار القديم في المديح والرّثاء، وما يشبههما بينما كانت تنفكّ من هذا الإطار أحياناً في "الغزل، والخمريات"، وقد تطلّ له قوّة البناء فيهما، وتطلّ له روعة التصوير ورقة العاطفة والإحساس، والشعور والمرهف، والذّوق الأدبي الرّفيع، وقد يهبط إلى لغة العامّة، وذلك حين يَعْمد إلى العبث والهَزْل، ويهبط أحياناً إلى أسلوب ليس فيه شئ من القوّة. وكان يَعْمد فيه إلى اللحن أحياناً[1].

ويروى لنا صاحب كتاب "طبقات الشعراء" فيقول: "كان "أبو نواس" أدب الناس وأعرفهم بكلّ شعر، وكان مطبوعاً لا يستقصي، ولا يجلّل شعره ولا يقوم عليه، ويقول على السّكر كثيراً. فشعره متفاوت، لذلك يُوجد فيه ما هو في الرّبا جودة وحُسْناً وقوّة وما هو في الحضيض ضَعْفاً وركاكة [2].

بيْد أن "أبا نُواس" قلّما يذهب مذاهب القدماء في أساليب الشعر، وقد تولّدت أشعار العدد المعروفة "بالطّرديات" من وصف الوحش، وحيوان الصحراء، والذي يشيع كثيراً ويظهر في أشعار القدماء. ولكن يبدو أن "أبا نُواس" هو الذي سبق إلى وضع أسلوب ثابت لهذا المذهب الشعري. ولعلّ بعض شعراء بني أميّة قد وصف ملاذ الصّيد والطّرد. وإن لم تعرفه معرفة أقرب إلى التّعيين والدّقة، ثم تبعه "أبو نواس" في ذلك، فإن مذهبه فيه متقن ولا يشبه أن يكون مستحدثاً[3].

مدرسة "مسلم بن الوليد" وخصائصها الفنية:

هو الشاعر "مسلم بن الوليد"، والذي يكنى "أبو الوليد"، ويلقّب "بصريع الغواني" ولد "أبو الوليد" بين سنتي ثلاثين ومائة للهجرة، وسنة أربعين ومائة للهجرة أيضاً، وعاش

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص١٦٠ وما بعدها بتصرف

(٢) طبقات الشعراء: لابن المعتز ص١٩٤.

(٣) تاريخ الأدب العربي – كارل بروكلمان ص٢٧ نقل الدكتور/ عبد الحليم النجار.

في "بغداد"، فاتخذ من الشعر حرفة له، ينظمه في المناسبات، والمديح حيث إن الشاعر "مسلم بن الوليد" كان يمدح "هارون الرّشيد"، بل كان الشاعر "أبو الوليد" كثير المديح للخليفة "هارون الرشيد"، و"البرامكة"، كما مدح من بعدهم "الفضل بن سهل"، وزير المأمون، وهو ابن "هارون الرشيد"، وجعله "المأمون" صاحب "البريد"، "بجرجان"، ولحق بربّه بها، وكان ذلك في سنة ثمان ومائتين للهجرة (٢٠٨هـ).

وقد أحيا الشاعر "مسلم بن الوليد" مذهب شعراء بني أميّة في هجائه للشاعر "قُنْبر" بيد أن "محمد بن داود" يأخذ عليهم في كتاب "الورقة" أنه أفسد مذهب القدماء، وذلك بالغلوّ في التّشبيهات، ويقول "الآمدي" في الموازنة:

"إن "أبا تمام" سلك طريقه في "البديع"، فاضمحلّ بهما شعر العرب – كما قال "أبو هلال العسكري" في كتابه "الصّناعتين" – وهو مصدر أساسي من مصادر علوم "البلاغة العربية": "إنه جَارٍ على وتيرة واحدة لا يبتعد عنها"، وفي أخبار "مسلم بن الوليد" وأشعاره ما يدل على أنّه كان شيخاً صالحاً، وأغلب الظن أنه كان من موالي "الفُرس"، ويبدوا أن مواهبه الشعرية قد استيقظت في نفسه مبكّراً.

ويُعدّ الشاعر "مسلم بن الوليد" أوّل من عاش لمذهب "البديع"، و"التصنيع"، ينمّيه وقد تناوله منه الشعار "حبيب بن أوس الطّائيّ"، والمكنى بـ "أبي تمام"، فبلغ به الغاية واجتار فيه النهاية [1].

ويقول "الأصفهاني" في أغانيه: "وهو فيما زعم أنه أول من قال الشعر المعروف بـ "البديع"، وتبعه فيه جماعة كان من أشهرهم "أبو تمام الطائيّ" بيْد أن "مسلم بن الوليد" هو صاحب هذا المذهب الجديد من "التّصنيع"، وهو الذي اقترح له اسمه "البديع".

و"مسلم بن الوليد" يعتمد في شعره اعتماداً كبيراً على "الإطار التقليدي"، وما يرتبط

---

(١) تاريخ الأدب العربي – لكارك بروكلمان ٣٢/٢.
- الموازنة للآمدي.
- الصناعتين لأبي هلال العسكري.

به من جزالة الأسلوب، ومتانته، وجماله، ونصاعته، وبلاغته، وقوّته. حتى في غزله وخمرياته فإنه لا يهبط أبداً على نحو ما يهبط "أبو نُواس" إلى الأساليب اليومية. يعنى "أسلوب العامة"، ويغلب على شعره أن يكون من الأوزان الطّويلة حتى يتلاءم مع ما يريد من "جَرْس" قويّ، وضخامة البناء في اللفظ، والتعبير، وهو من هذه الناحية بعدّ في طليعة من دفعوا الشّعراء العبّاسيين إلى التمسّك بالأسلوب الجزل القويّ.

وهو صاحب رويّة غير مترجل، ولا يقول الشعر عفو الخاطر، فالشّعر لديه صناعة مجهدة، ومرهقة لا بدّ فيها من التريّث والتأني والتمهّل، والعسّقل والتجويد، ولعلّ دلك ما جعل "ديوان الشاعر" صغيراً، وضئيل الحجم بالقياس إلى دواوين الشعراء المعاصرين له من أمثال: "أبو نواس"، و"بشار بن بُرد"، وهذا البناء الضّخم لديه غير كافٍ بمحامته وحدها في رأيه، ولكن لا بدّ من إضافة الزّخرف الجديد، والذي كان يأتي على قلّة في الشّعر القديم، وأكثر منه الشاعر "بشّار بن بُرد" وخلفاؤه، بَيْد أنّهم لم يتخذوه مذهباً أما الشعار "مسلم بن الوليد" فقد طبّقه على شعره [1].

ويقول الدكتور / "أحمد إبراهيم موسى" في مدرسة "مسلم بن الوليد" واتجاهاتها الفنية: "كانت مُبالغة "مسلم" وإسرافه في أصْبَاغ البديع، وحشده لكثير منها في القصيدة الواحدة، بل في البيت الواحد، مع إحكام المعنى، ودقّة الصّنع سبباً في استقلاله بمدرسة واحدة، واضحة المعالم، ومستوية الجوانب يَرِدُهَا الوُرّاد فيفيدون منها فائدة قريبة عاجلة من غير تعب، وبدون مشقة[2].

ومن بديع ما يروى له قوله:

إن كنت تسقينا عين الرّاح فاسقني ... كأسا الذّ بها من فيك تسقيني

عيناك راحي وريحاني حديثك لي ... ولون خدّك لون الورد يكفيني (٣)

---

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص١٨٢ وما بعده – بتصرف.
(٢) الصنع البديعي في اللغة العربية ص٧٨.
(٣) طبقات الشعراء: لابن المعتز ص٢٣٨

الخصائص العقلية والفنية عند مدرسة "أبي تمام":

هو "أبو تمام" "حبيب بن أوس الطائي" ، أحد الأعلام الشامخة في عالم الأدب وبعض الأطواد الراسخة في شعر العرب، وقد لمع مع التاريخ ذكره، وانتشر في الآفاق خبره، وتموج به فنه الأدبي حتى أجلسه على سرير الملك بين الأدباء، وسواه على عرش المكانة الأولى من طنب الشعراء.

والمعروف أن سلسلة نسبه تصله بالآفاق العربية اليمنية الطراز، وأن صُلَيْبَته الطائية حقيقة لا مجاز، وأنه يعربي الجزم، يمني النجار.

وممن نثروا عقود تلك السلسلة : "الخطيب البغدادي"، و"ابن خلّكان"، و"عبد القادر البغدادي"، و"يوسف البديعي"[1].

وإن كانوا قد اختلفوا اختلافاً بيّناً في عدد الآباء، وتحرير الأسماء، ولهذا رأينا صاحب كتاب "الأغاني" يضرب صفحاً عن ذلك النسب، ويكتفي بقوله: "من نفس طيئ صلبية"[2].

وزعم بعض الناس أن عروبته سمت مصنوع، وأمت مطبوع، وحلى صاغة "أبو تمام" لنفسه لما كان يخاط به النسب العربي يومذاك من سحر وبهر، وتجواز بالشخص إلى عنان السماء، ومن هؤلاء "الحسن بن بشر الآمدي"[3]. الذي أثار عثير هذا الشك إلى أن تلقفه المستشرق الإنجليزي "مارجليوث" فقط أن هذا النسب مزعوم، وأن "أبا تمام" كان نصرانياً فأسلم، وغير اسم أبيه من "ثادوس" إلى "تيودوس"، إلى "أوس"[4].

ولقد أبى الدكتور / "طه حسين" على العهد به دائماً إلا كبر هذا المزعم، مؤيداً في ذلك ما ذهب إليه المستشرقون.

والذين قاموا بالترجمة "لأبي تمام" يردون زمن ولادته بين سنتي (١٧٢ ، ١٨٠)

---

(١) تاريخ بغداد ٢٤٨/٨، ووفيات الأعيان: لابن خلكان ١٥٠/١، خزانة الأدب ١٧٢/١، وهبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام ص٩

(٢) الأغاني ٧٦/١٥ طبعة التقدم .

(٣) أوائل الموازنة والأغاني ١٥٠/١ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية ٣٢/١ .

(١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢) كما نرى صاحب "معاهد التنصيص" يرد زمن ولادته بين (١٧٢ ، ١٨٨ ، ١٩٠)، ويزيد "ابن خلّكان" فوق هذه الثلاثة (١٩٢) وفي نزهة الألبّاء نقلاً عن ابنه "تمام" أنه وُلد سنة ١٨٨هـ. وفي "خزانة الأدب وسرج العيون والنجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة" لـ "ابن تغرى بردى" الأتابكي الأشعري: أنه وُلد سنة ١٩٢هـ، وهي التي حدده الشاعر نفسه عندما سُئل عن موعد مولده. ونرى المستشرق "جليون" يقرر أنه وُلد سنة ١٨٠هـ ، أو سنة ١٨٨هـ (٧٩٦ أو ٨٠٤م).

وفي دراسة متأنية عميقة، مدعومة بالأسانيد العقلية والدلائل التاريخية رجّحنا أنه وُلد سنة ١٩٠هـ[١].

والمؤرخون عدا صاحب "الأغاني" متفقون على أنه وُلد بقرية "جاسم"، وهي إحدى قرى "الحَوْران"، وهي من أعمال "دمشق" بسورية العربية. ويقول "ياقوت الحموي": "إنها تقع على ثمانية فراسخ من "دمشق" على يمين الطريق الأعظم إلى "طبرية"[٢]

ويذكر "أبو الفرج الأصفهاني" أنها قرية من صواحي "صَنَج"[٣]، وهي الآن من قرى "حوران" سورية. فلقد نشأ الشاعر في هذه القرية، فتفتقت شاعريته، وكان أبوه يعمل "خمّاراً" في "دمشق". ولا يجمع من تجارته أكثر مما يكفيه، ولما كبر ابنه رحل إلى هناك حيث عمل خادماً عند حائك كما يذكره "ابن خلّكان"، ولكن نفسه الأبية أبت الاستمرار في هذه العمل، وقرر أن يخلف ثوب النصرانية، ويتخذ الإسلام سربالاً، فأعلن إسلامه وخرج على الفقر كما خرج على الكفر، وشمّر عن ساعد الجد لينعم في ظلال الإسلام بحياة رغدة، وقد مات أبوه في هذه المرحلة، فاتّجه إلى "حمص"، ثم اضطر إلى الهجرة منه. فكانت هجرته إلى مصر تلك البلد المضياف التي تنزل روادها دائماً الجنات الأنف وعندما نزل بساحتها شعر بالأمن، فدخل إلى جامع "عمرو بن العاص" رضي الله عنه يستقي

---

(١) الوفيات ١/١٥٠ ، تاريخ بغداد ٨/٢٥٢ ، دائرة المعارف ١/٣٢٠
(٢) معجم البلدان ٣/٣٧
(٣) الأغاني ١٥/٩٦

معارف الكتاب، ويسقى عذب الشراب، وفي ظلال هذه الجامعة العلمية آنئذٍ ارتشف الرّضاب العلمي، وكرع من المعرفة ما شاء له، ومن هناك تدفق صيبه الشعري، ثم ذهب إلى "بغداد" حيث استقرت به عصا التسيار هناك، وقد امتاز "أبو تمام" منذ نشأته بدماثة الْخُلْق، وكان طويل القامة، فصيح اللسان، يتمتع باللون الأحمر الجذاب، ومع فصاحة لسانه كان يشكو حبسة يسيرة في النطق بالكلمات، كما كان ألمعياً حاد الذكاء، كريم النفس، مرهف الحسّ، قوى الحافظة، سريع الاستيعاب، وقد اتُّهم بأنه كان ذا فروح في دينه، وجروح في يقينه، مولعاً بالفسّاق، ومنادمة الأصحاب على الشراب[1].

وفي رأينا أن هذا التشنيع على "أبي تمام" كان من حسّاده وشانئيه.

كل العداوة قد يُرجى محبتها ... إلا عداوة من عاداك عن حسد

فقد رموه بالكفر، وعبادة اللات والعزى، ونقص ركعات الصلاة[2] على أن المجمع عليه أنه لم يعلق فتاة، ولم تلن له أمام امرأة قناة، ولهذا كان غزله في شعره غزلاً صناعياً، وكان ضعيفاً متخاذلاً، ومن المعروف أن "أبا تمام" كان عالي النفس، شديد النّبل، سابغ العطف على أهل التعفّف، خاصة في دارة الأدباء والشعراء، ولقد كان الفقر هو المزرعة التي نما فيه عوده، واخضرّ وجوده، وألبسته حُلّة حالكة السواد.

بَيْد أن الحياة الأدبية التي حباه بها القدر كانت كفيلة بأن تقتص جناح مَتْرَبَته، وتنقله من الفقر إلى الغنى، فلقد درَّ عليه شعره كثيراً من المال، ونفحه أدبه بغزير من النوال، بَيْد أنه كان مُسرفاً مبتلافاً، خاصة في ميدان مساعدة المعوذين، وكان مثله الأعلى في ذلك قوله:

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا ... من كان يألفهم في المنزل الخشن

ولهذا كان يوزع بالشمال ما كان يجمع باليمين، غير آبه بالمستقبل، وما تخشه الأيام، وقضى "أبو تمام" حياته كالطائر المغرد، يتنقل من فنن

---

(١) الأغاني ١٥/١٠٠، ١٠٣. والصولي ص١٨٤، وزهى الآداب ٣/١٣٢، وشرح العيون ص٢٠٧.
(٢) الصولي ص١٧٣.

إلى فنين، ومن غصن إلى غصن، ويطير من أيك إلى أيك، وقد دفعه الفقر أولاً إلى الارتحال لطلب المال، فذهب إلى "حمص"، ثم دلف إلى "متمر"، ومكث بها خمس سنوات، ثم رحل إلى "بغداد": طمعاً في الإمداد وزيادة الزاد، ولما أخفق في لقاء "المأمون" خفق في سماء "المعتصم"، فنزل أكرم ساحة بين الشعراء والأدباء، ولدى الوزراء والعظماء، والقادة والرّواد، فيقول:

وغربت حتى لم أجد نكر مشرق وشرقت حتى قد نسيت المغاربا

وكانت الحياة في أيامه تموج بكثير من المذاهب السياسية، وكانت الدولة في عهدة علوية، واستطاع "أبو تمام" أن يجتاز كل هذا، وظل شاعر الخلافة المحسب، فقد كان علوياً وكان يظهرها أحياناً.

أما منهجه في شعره: فقد كان من المولعين بالصنع البديعي الصبغ، كما كان كلفاً بالغريب. فاتّجه إلى المعاني، ناسياً سلامة المباني، ومال إلى الإسراف في التزيين حتى فتح على نفسه أبواب النقد اللاذع، وحتى قال "دعبل" عن شعره: "إنه خطابة"، وقال ابن الأعرابي: "إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل"[1].

ويقول القاضي الجرجاني: "إن دلك دفعه كثيراً إلى أن يخلط الغرر بالغرر"[2]

وقد كان شاعراً قوياً، خاصة في مجالي "الرثاء، والثناء"، ولكن كثيراً من أبياته يظهر فيه التكلف.

وتتلمذ عليه "ابن الرومي"، و"إبراهيم بن الفرج"، و"الصنوبري"، والذي يلقب "بحبيب الأصغر"، وأولع "ابن خفاجة الأندلسي" بمنهجه، وتعتمد الصنعة فاستعمل الغريب والمحسنات، فاسيم شعره. واستغلقت معانيه كما ذكر "ابن بسام" صاحب "الذخيرة"

وكان الشعراء يحتكمون إليه، وينشدون أشعارهم بين يديه، فيحكم حكم القاضي البصير، ويفصل فصل الناقد الخبير، ويُلبس التّاج من يستحقه دون اعتراض أو احتجاج

---

(١) موازنة – لأبي تمام.
(٢) الوساطة ص٢٢ ـ ٢٨.

والتاريخ يعرف له المكانة الأولى في النقد الأدبي، ويحفظ له قدره في وزن الشعر العربي، والنقاد جميعهم سلّموا الأمر إليه، واستحسنوا ما استحسن وهجنوا ما هجّن، أما من حيث شعر "أبي تمام" ففيه الغثّ والثمين، وفيه الجيد العالي والحشف البالي، والواضح أنه شاعر غَنِيٌّ في المعاني فقير في المباني.

والنقاد مختلفون فيه، فأصحاب المدرسة القديمة يصورونه خارجاً على الحدود متحللاً من القيود، وأصحاب المدرسة الحديثة بهرتهم دقة معانيه، وعمق أفكاره، فسلموه لواء الزعامة، ورأوا فيه قائداً لجيش الشعراء، ورائداً لركْب الأدباء، وغفروا له هفواته وقالوا: "إن لكل جواد كبوات، ولكل عالم زلات".

أما خصائص شعره: فقد ذكر "ابن المعتز" أن "أبا تمام" كان كثير الاطلاع والدرس وأن "محمداً بن قدامة" قال له: "يا "أبا تمام"، إنك لتنظر في الكتب كثيراً، وتدمن الدرس فما أصبرك عليه! فقال: والله ما لي إلف غيرها، ولا لذة سواها، وإني لخليق إن افتقدتها أن أحن.

وهذه الثقافة الغزيرة التي تشيّع بها "أبو تمام" كانت لها آثارها في شعره، وفي مكانته الأدبية، فهو رأس الطبقة الثانية من المولدين، جمع بين معاني المتقدمين والمتأخرين، ظهر والحضارة راقية، والعلوم مترجمة، فحصف عقله. ولطف خياله بالاطلاع عليها واستنبط طريقته من ذلك، وآثر فيها تجويد المعاني على تسهيل العبارة، وهو أول من أكثر من الاستدلال بالأدلة العقلية والكتابات الخفية. ولو أفضى ذلك إلى التعقيد، ولما رأى أن سلامة اللفظ فاتته أراد أن يجبر ذلك الكسر، فتوخي الجناس والمطابقة والاستعارة، فسلم له بعض، وأغفل عن بعض. وله معان مبتكرة، وألفاظ متخيرة، ضمنها من الأمثال والحكم ما زاد في ثروة الأدب العربي[1].

ويقول "ابن المعتز" في شعر "أبي تمام": "لو استقصينا ذكر أوائل قصائده الجياد، التي هي عيون شعره لشغلنا قطعة من كتابنا هذا بذلك، وإن لم نذكر منها إلا مصراعاً، لأن

---

(١) طبقات الشعراء – لابن المعتز ص٢٨٣، وتاريخ الأدب العربي – لأحمد حسن الزيات ص٣٣١.

الرجل كثير الشعر جداً، ويقال: إن له ستمائة قصيدة وثمانمائة مقطوعة، وأكثر ما له جيد والرديء الذي له إنما هو شيء يقلق لفظه فقط، فأما أن يكون في شعره شيء يخلو من المعاني اللطيفة، والمحاسن والبدع الكثيرة فلا"[1].

وفي تاريخ الأدب العربي "لكارل بروكلمان" وصف دقيق للخصائص العقلية والفنية في شعر "أبي تمام"، نجتزئ منها ما يأتي:

شعر "أبي تمام" متأثر تأثراً كبيراً بشعر "ديك الجن"، ويقول "دعبل":

"لم يكن "أبو تام" شاعراً، إنما كان خطيباً، وشعره بالكلام أشبه منه بالشعر". وكان "دعبل" يميل عليه، ولم يدخله في كتابه "الشعراء". وعاب "ابن المعتز" "أبا تمام" بأنه أفسد ذوق معاصريه بإفراط المعاني والمجازات، ويقول "ابن الرومي": "إن أبا تمام الطائي كان يطلب المعنى، ولا يبالي باللفظ. حتى لو تبين له المعنى بلفظة نصية لأتى بها، ولكن "ابن رشيق" يقول في "العمدة": إنه ابتدأ بوضع قوافي القصيدة، **وطلب الأبيات بعدها:**

ويروى أن "يعقوب الكندي" لما رأى كد "أبي تمام" ذهنه في تحلية شعره بالمعاني والبديع قال فيه: "هذا رجل يموت قبل حينه؛ لأنه حمل على كيانه بالفكر".

وأنكر "الجرجاني" في "أسرار البلاغة"، و"المرزباني" في "الموشح" على "أبي تمام" كثرة استعمال الغريب المصدود عنه، من الكلمات وأسماء الأمكنة. وقلما وجدنا في شعر "أبي تمام" شبئاً في الحنين والصبابة، كقصيدته في وداع صديقه "علي بن الجهم" ورغم ذلك فهو يتنبأ لشعره بالبقاء والخلود، وأن قصائده ستُتلى كما تُتلى أخبار الغزوات والفتوح، وقد يكون "ابن الأثير" متأثراً في ذلك؛ إذ يزعم في المثل السائر أن في شعر "أبي تمام" طنين السلاح، كما أن "أبا الفرج الأصفهاني" سماه أمير الشعراء، وأشاد "أحمد زكي أبو شادي" في كتابه: فوق العباب بفتوة شاعريته، وأبدى أسفه لعدم بذل العناية الواجبة في الكشف عن نواحي عبقريته.

---

(١) طبقات الشعراء – لابن المعتز ص٢٨٥ وما بعدها.

وقد سار كثير من شعر "أبي تمام" مسرى الأمثال؛ لكثرة ما فيه من الحكم، وحقائق الكلم[1].

وعن عناية "أبي تمام" بالصنع البديعي يقول الدكتور/ "أحمد إبراهيم موسى":

"بلغ الصبغ البديعي على يديه من التأنى والزينة، والزخرف والتنميق، والتكلف والتعقيد، والمزج بألوان الثقافات الواسعة، والخوض في بحار الفلسفة المتعمقة، مبلغاً لم يبلغه على يد شاعر كان قبله أو بعده. فهو فيلسوف إذا عرض للفلسفة، نحوى إذا خاض في النحو، متكلم إذا جنح لعلم الكلام، فقيه إذا نحا نحو الفقهاء، تاريخي إذا عرج على التاريخ.

أغرم "أبو تمام" بأصباغ البديع، فانتحى نحو "مسلم"، وهام بمذهبه، حتى حلف لا يصلى قبل أن يحفظ "ديوان مسلم"، فتأثر بهذه الطريقة، واستخدم في شعره تلك الأصباغ التي استخدمها أستاذه، ولا سيما الجناس والطباق والتقسيم. ولكنه أربى على أستاذه في هذه الصنعة بما جعله يمثل مدرسة وحده.. وقد امتازت طريقة "أبي تمام" بالمبالغة المسرفة في الإكثار من هذه الأصباغ، مع التكلف الواضح الذي ينتهي إلى أعمق غايات القبح، والاستكراه في كثير من صنعته، كما يتضاءل أمامه ما رأيناه عند "مسلم" حتى استحالت بذلك عن مألوف هيئتها، ومعروف صورتها عند أستاذه.

كما امتازت بغموض أصباغ البديع في ألوان الثقافات الواسعة والفلسفة المتعمقة حتى كانت إلى الغموض والالتواء والصعوبة والاستبهام، أقرب منها إلى الوضوح والاستقامة، والسهولة والجلاء[2]

الموسيقى الشعرية عند "البحتري":

"أبو عبادة الوليد بن عبادة عبيد الطائي"، وُلد في "منبج" أو قرية قريبة منها سنة ٢٠٦هـ، واتصل في شبابه بـ "أبي تمام" عند حضوره إلى "حمص"، فلما اقتنع "أبو تمام"

---

(١) تاريخ الأدب العربي – كارل بروكلمان ص٢، ٧٢ وما بعدها.
(٢) الصبغ البديعي ص٨٢ وما بعدها.

بملكته في الشعر، أوصى له العطاء، ثم قدم "بغداد" فمدح المتوكل، وكبار رجال الدولة وأقام هناك زمناً طويلاً، فلما انقضت الخلافة إلى "المستعين" ومن بعده إلى "المعتز" لم يحظ "البحتري" منهما بطائل، وترك بغداد، ورجع إلى بلده.

ومما يدل على شهرة "البحتري" وذيوع شعره بين المتأخرين، أن أهل "حلب" في المائة الخامسة للهجرة عرفوا قبر حبيبته "علوة"، ويفتخر "البحتري" نفسه بأصالة شعره، وما اجتمع له من العقل والتجربة في نفسه الذي حلا من تكلف حدود المنطق، وفضل "الجرجاني" في "أسرار البلاغة" سلاسة ألفاظه، ووضوح بيانه عن غموض "أبي تمام".

وقد أحسن "البحتري" في وصف الربيع إحساناً ظاهراً، نوّه به "الثعالبي"، وأشاد بفضله، وفي أعراض الشعر القديم، كوصف الفرس استطاع أن يضيف نواحي جديدة حتى رفعه "العسكري" في ذلك على سائر الشعراء المحدثين.

وتوفي في "حلب"، وقيل: في "منبج" سنة ٢٨٤هـ[1].

وللشاعر "البحتري" الموسيقى الخاصّة به، فقد عرف كيف يلائم بين ألفاظه، وكيف يرشّح لقوافيه، ويهيئ لها مكانها، فقد كان شاعراً ممتازاً في "فنّ الصّوت"، واستمرّ يستمده من القيثارة العتيقة في كثير من صورها وجوانبها، بَيْد أنّه عرف كيف يستخرج من هذه القيثارة أصواتاً جديدة معجبة لأمثال الموسيقيين الممتازين.

وكان يعرف في نفسه هذه الخاصيّة حتى قالوا: "إنه إذا أنشد يتشادق في حركته مرّة جانباً، وأخرى القهقرى، ويحرّك رأسه مرّة، ومنكبه مرّة أخرى، ويقف عند كلّ بيت ويقول: "أحسنت والله"، ثم يقبل على مستمعيه ويقول لهم: "ما لكم لا تقولون لي "أحسنت"، هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله".

ومهما يكن من شئ فإن "البحتري" استطاع أن يحوّل موسيقاه إلى ألحان، وأرقام موسيقية خاصّة، **واقرأ له هذه القطعة:**

لي حبيبٌ قد لجّ في الهجـر جـدا ... وأعـاد منـه الصّـدود وأبـدى

---

(١) تاريخ الأدب العربي – كارل بروكلمان ٤٨/٢ وما بعدها.

ذو فنون يُريك في كلّ يوم خلقاً من جفائه مستجدّاً

يتأبّى منعة وينعم .

أغْتدي راضياً وقد بتّ غصباً وأُمْسي مولى وأصبح عبداً

وبنفسي أفدي على كلّ حال شابناً لو يمسي بالحسن أعدى

مرّ بي خالياً فأطمع في الوصل وعرضت بالسلام فردا

وتنى خدّه إليّ على خوف فقبّلت جلّنارا ووردا

سيّدي أنت ما تعرضت ظلماً فأجازي به ولا خنت عهدا

ونرى صاحب "الصناعتين" يعجب بهذه القطعة أعجاباً شديداً، وحقاً إن "البحتري" استوفى فيها كلّ ما يمكن من وسائل التفوّق في "فن الصوت"، حيث يبدأ فيوفّق بين الشّطرين في المطلع، ويجعلهما مصرعين هذا التّصريع الذي كان يعجب به أصحاب البيان، ويلائم بين الحروف في الشّطرين، فقد تكرّرت "الجيم" في الشّطر الأول، كما تكرّرت "الدّال" في الشطر الثاني، فأحدث ذلك توافقاً صوْتياً بين الكلمات، وفي البيت الثالث يوفّق بين الألفاظ توفيقاً دقيقاً، إذْ جاء بكلمة "يتأبّى" كأنها مشدودة إلى كلمة "ينعم" بوساطة هذا الرّباط المحكم "مَنْعاً"، وهنا تحسّ ما يصنعه التّوافق الصوتي بين الحروف والكلمات وكذلك ما تراه من الطّباق الصوتي بين "يدنو"، و"يبعد"[1]، وكذلك بين الكلمتين :

"وَصْلاً"، و"صَدّاً"، وانظر إلى قوافي الأبيات، كيف أحكم قرارها، فقد تتابعت منسّقة تنسيقاً، وها هي "أبداً"، "جداً"، "عَبْداً"، و"أعدى"، و"فردا"، و"عَهْدَا"، فإنك تراها متحدة في عدد حروفها، وحركاتها، وسكناتها، وسمى أصحاب البديع ذلك بـ "التطريز"[2].

أجل: إن "البحتري" قد أحسن جانب "الموسيقى الداخلية" في الشعر، وما يستتبعه من

---

(١) راجع كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري.

(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص٨٣ وما بعدها.

المتماثلة بين الألفاظ والمعاني، والتوافق الصّوتي بين الحروف، والحركات والكلمات، وكأنه يوفّر وقته جميعه "للصوت"، وهذا جلّ ما يعتمد عليه في شعره من جَوّ، وهو يطلق "الموسيقى" ويدعها تؤثّر في أعصاب المستمعين كما يريد ويشتهي[1].

التصنيع والصنعة لدى مدرسة "ابن المعتز":

"أبو العباس عبد الله بن المعتز"، ولد عام ٢٤٧هـ، وهو ابن الخليفة "المعتز بالله" الذي ولي الخلافة سنة ٢٥٢هـ، وكان "ابن المعتز" يتمتع بعيش ناعم مرفّه مع الشعراء والأدباء في خلافة "المقتدر"، فلما أفضت الخلافة إلى "المكتفي" انغمس في غمار السياسة، ومكايدها ولما تولّى "المقتدر" ابن عمه سنة ٢٩٥هـ، وترك تدبير الحكم وأمور السياسة لأمّه، ومن حولها من النساء والخصيان التفّ حول "المعتز" الحانقون على الخليفة، وأوعز إليه جماعة من رؤساء الأجناد أن يتهيأ للخلافة.

ثم خلعوا "المقتدر"، وبايعوا "ابن المعتز"، ولقّبوه "المرتضى"، ولكنه لم يبق في كرسي الخلافة إلا يوماً وليلة. فقد تحزب أصحاب "المقتدر"، وتعاونوا على أعوان "ابن المعتز". فأعادوا "المقتدر" إلى الخلافة، واصطر "المعتز" للاختفاء، والالتجاء إلى "ابن الحصاص" التاجر الجوهري، ولكن "المقتدر" سرعان ما اهتدى إلى مكمنه، فأخذه وسلّمه إلى "مؤنس الخازن" فقتله. وسلّمه إلى أهله ملفوفاً في كساء في الأول من ربيع سنة ٢٩٦هـ

وكان "ابن المعتز" يمعن في تقليد مذاهب القدماء في الشعر، وكان أيضاً متأثراً بـ "أبي نواس" إلى حد كبير، ويبرز في صور شعره وتشبيهاته ما كان ينعم به من ترف العيش ورفاهية الحياة[2].

وقد كان "ابن المعتز" حضرياً مترفاً عالماً، رأى من صور الحضارة ومشاهدها ما لم يره "البحتري"؛ لذلك أجاد في التشبيه، وانصرف إليه، وتقدم جميع أهل عصره فضلاً وشرفاً وأدباً، وشعراً، وظرفاً، وتصرفاً في سائر الآداب، وشعره وإن كان فيه رقة الملوكية، وغزل

---

(١) ذاته ص١٩٩.
(٢) تاريخ الأدب العربي – كارل بروكلمان ٥٢/٢ وما بعدها.

الظرفاء، وهلهلة المحدثين، فإن فيه أشياء كثيرة تجرى في أسلوب المجتهدين، ولا تقصر عن مدى السابقين، وأشياء ظريفة من أشعار المللوك.. وإن من يتتبع صنع "ابن المعتز" يجدها قد فاضت بأصباغ الزخرف الحسي الذي لم يغص في بحار الفلسفة والثقافة، ولم يعقد بمزج تلك الأصباغ بعضها ببعض آخر، على نحو ما هو عند "أبى تمام"، بل يزجيها مجتمعة دون اتحاد أو امتزاج، وهى مع ذلك تفيض رقة، وتسيل عذوبة، وتمثل الحضارة المترفة في أروع صورها، وأجلها، اقرأ قوله يُجَانِس:

يـــا دار أيـــن ظبـــاؤك اللعـــس ... قـــد كـــان لـــى فـــي أنســـها أنـــس

وقوله يمدح "المكتفي بالله":

بالمكتفي كفـــي الأنـــام ســـمومهم ... وغـــدا علـــيهم طـــالع ســـعود [1]

وكان "ابن المعتز" شاعراً مُجيداً، غير أنه كان أميراً مترفاً، ولم يتح له ترفه أن يتعمق الثقافة والفلسفة، وهو كذلك لم يتعمق وسائل التصنيع الحديثة، فإنه لم يعرف العمق في شئ، وليس معنى ذلك أن "ابن المعتز" كان من ذوق الصائغين، فقد كان من ذوق المصنعين، فالتصنيع والزخرف أساسيان في حياته، وهما كذلك أساسيان في فنه، ويحدثنا صاحب "الأغاني" أنه بدت فيه منذ نشأته نزعة إلى الغناء والموسيقى، ضاعفت حسه بالجمال، كما ضاعفها ترفه ونعيمه، وليس من شك في أن من يعيش مثل هذه المعيشة لا يمكن أن يكون ذوقه بسيطاً، فالترف لا يتيح بساطة في الحياة، بل هو يتيح ضرباً معقداً من التصنيع في شئونها.

والحق أن التصنيع كان مادة أصلية في حياته، وسرى منها إلى فنه، فهو يعيش في شعره كما يعيش في حياته معيشة تعتمد على التأني والتنميق.

---

(١) الصنع البديعى فى اللغة العربية ص١٠٤ وما بعدها.

وكان "ابن المعتز" شاعراً مصنّعاً من أصحاب مذهب التصنيع، وكان يعجب بهذا المذهب إعجاباً شديداً دعاه إلى أن يكتب في أدواته ورخرفه كتابه "البديع"، وهو يشهد له بأنه كان فتاناً عالماً يحسن وضع المصطلحات الفنية[1].

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص٢٦٥ وما بعدها.